

وَأُرْغِدَتْ أَشْهَرًا بِالْقَهْبِ أَرْبَعَةً
 فِي سِرِّ مُسْتَأْسِرِ الْقُرْبَانِ مِحْبَارِ
 تَرَعَى الْبِقَاعَ وَقَرَعَ الْجِزْعَ مِنْ مَلَلِ
 مَرَايِعِ الْعَيْنِ مِنْ نَقْوَى وَمِنْ دَارِ
 فِي فَخْرِ النَّبْتِ مَجَاجِ الثَّرَى صَرَحِ
 يُخَابِلُ الشَّمْسَ أَفْوَاجًا بُؤَارِ
 قَرْنِهَا عَرْمِيًّا لِلرَّحْلِ عُرْضَتِهَا
 أَزْوَاجُ لِمَسَاعَةِ الْقَوْدَيْنِ مِقْفَارِ
 فَلَمْ تَزَلْ تَطْلُبُ الْحَاجَاتِ مُعْرِضَةً حَتَّى انْتَقَيْتِي بِمَخِّ بَارِدِ رَارِ
 قَدْ غَوَدِرَتْ حَرَجًا لَا قَيْدَ يَمْسِكُهَا
 وَصَلْبُهَا نَاحِلٌ مُخَدَّوْدِبٌ عَارِي
 وَقَدْ بَرَى اللَّحْمَ عَنْهَا فِي قَافِلَةٍ كَأَرِي مَتْنِ قِدْحِ النَّبْعَةِ الْبَارِي
 تَهْجُرِي وَرَوَاحِي ، لَا يَفَارِقُهَا

رَحْلٌ ، وَطَوْلٌ ادَّلَاجِي ثُمَّ إِنْكَارِي^(١)

وإلى جانب وصفهم الصحراء وحيوانها كانوا يرقبون ما يحجب زرقه السماء في بعض الأحيان من سحُبٍ فقال ما تلبث أن تهطل وتسيل ، وتمتن عرضوا هسهه

(١) شعر عروة ١٩٨ وما بعدها ، وذات معجزة : ناقة صبيغة قوية ، وأجفرت : بلغت أربعة أشهر أو خمسة ، والسناسد : النبات القوي اللين ، والقريان : جمع قري وهو مجرى الماء في الروض والرمس : الشديدة ، والزوج : النبط فوق المودج ، والقودان : المدلان ، ورار : فاسد ، وخرج وقافله : ضامرة ، والفتح : السهم قبل أن يراش ويركب نعله ، والنبعة : شجرة تتخذ منها السهام ، والتهجر : سير الظهيرة الحارة ، والادلاج : سري آخر الليل .

الظاهرة التهان بن بشر في نحو قوله :

سَقَى أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ مُضْرُورِفُ الذَّرَى
 أَجَشُّ هَزِيمٌ بِحَفِشِ الْوَدْقِ مَقْدَمَا
 قَعَدْتُ لَهُ تُرْجِي مَطَافِلَهُ الصَّبَا
 إِذَا مَا دَنَا مِنْهُ صَبِيرٌ تَحْمَحَا
 لَهُ هَيْدَبٌ دَانَ يَزَلُّ جَهَامُهُ عَنْ كَلْفِ رَجَافِ الْعَشِيَاتِ أُنْحَا
 إِذَا رَجَفَتْ مِنْهُ رَحَى مُرْجِحَةٍ
 إِلَى مَكْفَهْرٍ كَالْأَخَاشِبِ أَرْزَمَا
 فَلَمَّا تَدَاعَتْ بِالسَّجَالِ ذَنُوبُهُ يَثْرِبُ تَمْرِي صَادِقِ الْوَبْلِ مَظْلَمَا
 تَرَى الْقَمَرَ بِالْقَيْعَانِ جِشْنَ بُنَانَهُ
 أَبَائِلَ يَنْسِفْنَ الْجَمِيمَ وَصِيًّا
 فَذَاكَ سَقَاها بَرَقَهُ وَغِيَامُهُ يَنْوُوهُ الشَّرِيًّا إِذَا طَاعَ وَأَنْجَبًا^(١)
 فقد رسم مشهداً لتزول النبت ، وبدأ بسحاب عال ، بهجته زعند أجش

(١) شعر التهان ١١٧ وما بعدها ، ومضروف : مرتفع ، وأجش : غليظ الصوت ، وهزيم ذو صوت ، ويقعد صوت الرعد ، وبحفش : يبيل ، والودق : الطر ، وترجي : تسوق ، والمطائل : السحاب الصغار ، والصباء : ريح شرقية باردة ، والصبير : الجبل والسحابة البيضاء أو الكثيفة التي فوق السحابة ، وتحمم : صوت والجهايم السحاب الذي لا ماء فيه ، والكلف لون بين السواد والحمر والرجاف الحر وأجهم أسود رحي مرجحة يريد سحابة مستديرة ثقيلة وسكفر : السحاب الأسود اللطيف والأخاشب الجبال العظيمة وأرزم صوت والسجل والذنوب الدلو وتمري تسدر والوبل الطر الشديد والقمر القمر طائر والقائم المستوي من الأرض والبنانة الروضة . وأبائيل جماعات والجيم النبت والصبم الشديدة والمجتمعة الخلق والتريا من الكواكب وأنجم العطر . كثر ودأم .

غليظ، وكانت رياح المصّب تسوق قطع السحاب على هيئة ومتهبل، وكلما مرت بجبل شاخ شجعت وأرعدت، وقد اختزن تلك القطع في جوفها المياه الكثيرة، غير أن غشاوة من النجم المقيم كانت تخفيها، فكما انقشمت عنها غشاوتها بسدت حقائقها، وكما رأيناها تضح وترعد إذا دأها جبل، كانت ترمم وترجمر كلما احتككت بها قطع أخرى من السحاب تحمل مثل ما تحمل، ثم بدأ الغيث ينصب غزيراً في يثرب، فانتشت الأودية والسهول، ونالت الرضا والبساتين وقصدت إليها الطيور جماعات جماعات، وبمثل هذا الطير يدعو النمنان لأم عبدة أن تسقى به وتغاث.

وعلى هذا النحو بصور مروءة سحابة تزودت من البحر ماء ثقيلاً، وأسا بلغت ديار سمدى هطلت وأبلاً شديداً ترك عيراصها صلبةً جرداء لا تنكاد تعرف من معالمها الأولى شيئاً ما لم ترجم بالظنون^(١)، ويبدو أن غضبه على قومها الذين أصرفوا، وأكدوا إصرارهم أن ينموها منه أول الأمر، هو الذي دفعه إلى رسم هذه الصورة التي لا تنكاد تثبت في ديارهم التي ظننوا عنها آثاره، على عكس ما رأينا لدى النمنان من الغيث الميم الذي تنصر به الحدائق وتغيب الحياة.

وإلى جانب وصفهم الأطلال، والفلوات، والحيوان الصحراوي، والسحاب والمطر وصف الدؤلي طريقاً مخوفاً سلكه^(٢)، ووصف أحمد بن أبي ذؤاد بغداد^(٣)، وسامراء^(٤)، وكنت قد أشرت إلى ما يلمح عند هروء خاصة من تصوير الممارك من جهة، وعمان المرأة من جهة أخرى عند الحديث عن فخره وغزله.

ومن الموضوعات الوصفية التي نالت حظاً كبيراً في شعر الفقهاء، وصوغ الشيب فأبو الأسود يتحسر لبين الشباب، واشتغال رأسه باليباض بعد أن كان أسود فاحاً يشبه حلقة الليل^(٥)، وللإمام الشافعي أبيات تتحدث عن شعوره عندما استقبل الفوج الأول منه، فقد انطلقاً - منذ حل في رأسه - شيباً نفسه، وانقضى ربيع عمره، واصفر لونه، ومضت قوته وبهجته:

خَبِبَتْ نَارُ نَفْسِي بِاشْتِمَالِ مَفَارِقِي وَأَظْلَمَ لَيْلِي إِذْ أَضَاءَ شِبَاهُهَا

- (١) شعره من ١٥٢ وما بعدها. (٢) انظر ديوان أبي الأسود ١١٧.
(٣) انظر اخبار القضاة ٢٠٠/٣. (٤) انظر اخبار القضاة ٢٩٩/٣.
(٥) انظر ديوانه من ١٩٦.

أبا بومة قد عششت فوق هامتي على الرغم مني حين طار غرابها
رأيت خراب العمر مني فزرتني وماواك من كل الديار خرابها
أنتم عيشاً بمد ما حل عارضي طلائع شيب ليس يفني خضابها
وعزّة عمر المرء قيل مشيه وقد فثيت نفس تولى شباها
إذا اصفر لون المرء وابيض شعره تنقص من أيامه مستطابها^(١)

ومن الشعراء الفقهاء الذين سجلوا مشاعرهم وهم يتفكرون هذه الرحلة من عمرهم محمد بن أبي المناهية، وقد أورده ابن المعتز مقطوعة تجري على هذه النشأة:

أُرَاعِكَ شَيْبٌ فِي السَّوَادِ يَلُوحُ يَبْتُ بِأَسْبَابِ اللَّيْلِ وَيَبُوحُ
وَمَا شَيْبَتْ إِلَّا لِلخَطُوبِ وَمَرَّهَا لَمَسْرُكٍ تَفْدُو مَرَّةً وَتَرُوحُ
تَمْرٌ خَطُوبٌ مُفْصَحَاتٌ بَطُّقَهَا فَتَزُورُ أَحْيَانًا وَهِنَّ جَنُوحُ
وَكَمْ جَسَدٍ يَهْتَزُ بِالخَفِضِ نَاعِمًا سَيُصْبِحُ مَفْقُودًا وَيَذْهَبُ رُوحُ
تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِ الشَّبَابِ وَطِيهٍ وَكَانَ، وَطِيْبُ الْعَيْشِ مِنْهُ يَفُوحُ
إِذَا شَتَّ فَاسْتَدْعِ الْمَشِيبَ خَضَابِيَه

فِرَاسُكَ يَبْكِي لِللَّيْلِ وَيَنُوحُ^(٢)

فقد ألقه ما أصاب رأسه من يبايض جعل دائماً يذبح انباء اقتراب أجله، وهو اقتراب كان يذكره به من قبل ما كان يراه من خطف الموت للناس من حوله، حتى لم يعد يفارق ذهنه أن كل حي - لا محالة - هالك مؤود، وها هو ذا مضت أيام شبابه، وانقضت مرحلة صباه، وبات يحتاج شعره إلى خضاب، ويتقل

(١) مختصر تذكرة القرطبي للشعراني من ١٦. ونسبت الأبيات الثاني والثالث والرابع والسادس إلى الإمام عني، انظر الكشكول ١٧٦/١. (٢) طبقات الشعراء ٣٦٣.

ساعة توديع هذه الحياة . ومن طريف ما للفقهاء في هذا المجال بيتان لسوار بن
عبادة يخاطب فيها شبيهة "تبدت" في رأسه ، وكأنما كانت عينه ، كما أبصرت" في
مرآة ، لا تقع إلا عليها ، وهو يدرك أنه - ولو زعها بمقراض - لن يزول منها
من قلبه لأنه - ببساطة - لن ينسى ما تمنيه من انقضاء الشباب :

يا شبيهة طَلَمَتِ في الرَأْسِ رَأْشَةً صَكَاتُما نَبَتَتْ في ناظِرِ البَصْرِ
لئن حَجَبْتُكَ بالمُقْرَضِ عَن بَصْرِي

فما حَجَبْتُكَ عَن هَمِي وَعَن فِكْرِي (١)

.....

فالشعراء الفقهاء وصفوا الأحمال ، ومشاهد المحراء وأحياناً ، والمصاحب
والطر ، وصور الدؤلي الطريق الخوف ، وعرض ابن أبي دؤاد لدينتي بمدا وسامراء ،
ورسم عروة ملاح المارك القلبية ، وعمان المرأة ، وأكثر الفقهاء من استعراض
التيب نذير الموت القريب .

.....

٢ - الغتاب :

ويأتي بعد الوصف موضوع الغتاب ، وقد طلع فيه الشعراء الفقهاء ما قد
بطراً على أواصر المودة بين الأصدقاء من جفوة وتغيير ، وما يبدو في معاملة بعضهم
من قلة وفاء أو وقوع في هفوات .

فمن تلك الجفوات ما حدث بين أبي الأسود الدؤلي وبين الشاعر أبي الجارود
سالم بن سلمة الهذلي ، وكانا يتهاديان القصيد ، ثم ولي أبو الجارود ولاية ، فحضر في
سحنة الدؤلي ، وخفتت مودته القديمة ، فكتب إليه أبو الأسود :

أبلغ أبا الجارود عني رسالةً يروح بها النادي لربك أو يمدو
فيخبرنا ما بال صرميك بمد ما

رضيت وما غيرت من خلقتي بعدد

(١) الكشكول ١/٢٩٤ ، وناظر بمعنى منظور : أي ما يراه البصر .

إن لنت خيراً سرّي أن نأله تنكرت حتى قلت ذولبدة ورد
فميناك عيناه وصوتك صوته تمثله لي غير أنك لا تمدو
لئن كنت قد أزمعت بالصرم بيتنا لقد جمعت أشراف أو له تبدو
فإني إذا ما صاحب رثاً وصنئه وأمرض عني قل مني له الوجد (١)

فهو ينسأل في رسالته عما وراء "تغيير سالم" ، آتت "تولتي حكماً تنشر
واستأسد ١٢ فإن يكن عزم القطيعة ، وبدت عليه أماراتها ، فإن وداد أبي الأسود
من جهة سوف يخفت أيضاً على عادته مع كل صاحب بدا له جفاه ، ويبدو أن أبا
الجارود كان مشتتاً في ولايته فلم يستجب لنداء صاحبه ، فبادر بسأله : "بأي زناد
يؤربن" عندكم قدسي ؟ (٢) ، فما كان جواب صاحبه إلا أن عد "رسالة شاعرنا
ناية دعورا" ، وأصم عنها أذنيه وطوى لها كشحه (٣) ، فنضب أبو الأسود للابسة
التي اخلطت على صاحبه ، فحسب الغتاب هجاء .

ومضى بين أنه ما كان يريد سوى الغتاب ، وذلك أمر سنة أمة فأخذ ،
على حد تعبيره (٤) ، ويتردد - في شعر الدؤلي - عتابه لأصحابه على هذا النحو (٥) ،
وسوف يأتي ذلك عند الحديث عن حياة الشاعر .

ومن القصائد الطريفة التي تتحدث عن جفاء الأصدقاء آيات لإبراهيم النخعي
يخاطب فيها صاحباً هجره أن "مثله في الناس كثير ، وأن هجرته لم يكن إلا ظلاً
وجوئراً ، فقد كان إبراهيم يزوره بينما هو مجفوء ، وما كان في الحقيقة بحاجة إليه
لولا الإخلاص ، ذلك أن له أشقاء أوفياء ماجدين ، لا تدفهم نذرة زيارته لهم إلى
إنفلاهما من جانبهم ، بل يمضون في وظائفهم ولقائهم ، وهنا يتوي إبراهيم ألا يقصد إلى
صاحبه سنوات وسنوات ، فإن تافت إليه نفسه وهنت بالشوق إلى لقاء منتهسا ،
ونذكر ما حدث بينهما ، وعندئذ تنوب إلى مقابلة المهجران بالمهجران ، بل يبلغ به

(١) الأغانى (الثقافة) ١٢/٣٢٨ ، والورد : الأسد ، والأشراف : الدلائل .

(٢) ديوانه ١٢٦ .

(٣) ديوانه ١٢٦ .

(٤) ديوانه ١٢٦ وما بعدها .

(٥) انظر على سبيل المثال ديوانه ١٧١ .

الأمر أن يمد الزبارة والجموة سواء إذ أن من عادته أن يقطع كل أمر يريه :
 وقلت لعبد الله إنك واحدٌ وثمك في هذا الأنام كثيرٌ
 قطعت إخواني ظالماً وهجرتني وليس أخي من في الإخاء يجور
 أزور وتجفوني ولست ينزح وإن الفتى تجفوه ثم يزور
 فلا تحسبن متحيك الود خالصاً ليضرب ولا أتي إليك فقير
 فكم من أخ لي ماجدٍ وإن ماجد أهر كضوء الشمس حين تير
 إذا لم أزره لم يُنب زيارتي وأهرف منه الود حين أزور
 عليك سلامٌ، سوف دون لقائكم تمر سنونٌ بدهن شهر
 وأكرم نفسي عنكم وأصوتها إذا كبدت من شوق إليك أظير
 فهيات هيات الزمان الذي مضى وقد حدثت بعد الأمور أمور
 فدونك حظي منك لست أريدُه طوال الليالي ما أقام تير
 وما إن أبالي زرتني أم جفوتني وما منها إلا علي يسير
 ولو أن بعضي رأيت لقطمته وإني بقطع الرائي لجدير^(١)
 ولمرودة بن أذينة آيات باتب فيها صديقاً له انطوى عنه ، بقول في تضاعيفها :
 ومن مؤاخ طوى كشحاً فقلت له إن انطواك هذا عنك يطونني
 لا تحسبن مؤاخاتي مقصرة ولا رضاك وقد أذنبت برصيني
 لا خير عندك في غيب وفي حضر إلا أهويل من خلط وتلوي
 بأي رأيك في أمر عنت به وفضل مالك يوماً كنت تكفيني؟

(١) مجالس نقيب ٤١/١ .

فليت شعري وما أدري فتخبني بأي قرصي من الأيام تجزيني ؟
 أبالذي كان مني مرةً حسناً أم بالقيبح وما أقبحت ترميني
 عجزاً عن الخير تلوي وتطله بخلاً علي به والشمر تفضيني
 لا تفضين فأني غير مُشبه
 من كنت أوليته ما كان يؤليني^(١)

فهو يحفو صديقه الذي آثر الهجران لأن له من دونه خلاً كثيراً ، وبصرح بأنه لن يفو عن ذنب صاحبه حتى لو رضي هو وعاد إليه ، ذلك أن حرمة لم يكن يؤاخيه غير بصيه منه ، ولا رأي بكسيه ، ولا مال يكفيه ، فبن أي شيء ينتقم منه ؟ أما قدم من خير حسن ؟ أم يمد الذي قدمه له تراً قبحاً فيرميه به ؟ أم أنه يحجز عن وفاء الخير فيمطله ويجزيه به تراً مستطيراً ؟ ولذلك لا يمدره حرمة ، ويؤثر أن يعامله بمثل معاملته .

ويمكن القول إن الشمر^(٢) الفقهاء بقصائد هذه فتحوا باباً جديداً في الشعر العربي ، وكالوا الطليمة السابقة لمن طرقوه من بعد أمثال الشريف الرضي ، وأبي الملاء المري ، وهو باب لستنا نشك أن كان يدفع إليه الدين الحنيف بما كان يحث عليه من حفظ المودة بين الأشقاء ، فلا يفرط المسلم في صداقة إخوانه ، ولا يقع في الهجران الذي حرّم ينحو قول النبي ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ : يلتقيان ، فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام »^(٣) ، وذلك يفسر غشك الشمر^(٤) الفقهاء بصحبة الماضي ، ونشبتهم بها ، وحرصهم على استمرارها .

غير أن قمة هفوات تندر - أحياناً - من بعض الخللان ، وهي هفوات لا تبلغ حد القطيعة كما في القصائد المتقدمة ، وإنما تشوبها قلة وفاء تقود إلى بعض الزلات ، وبما عرضوه من مظاهر هفوات الوفاء أن يستكبر بعض الأصدقاء إذا
 (١) شعره من ١٢٠ وما بعدها ، وطوى كشحاً : أي أعرض ، والأهويل : الألوان المختلفة ، وتلوي : غطله ، ومخيه : غائره . (٢) رياض الصالحين ٣٩٥ .

أصابوا من عرض الدنيا، فينصون « مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشين » ، فقد كان عيراك بن مالك وأبو بكر بن حزم وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة يجالسون بالمدينة زماناً، ثم إن ابن حزم وعراكا تولىا منصبين عاليين فكانا ييران ابن عتبة فلا يسلمان عليه، ولا يقفان به، وكان ضريراً فأخبر بذلك فأنشأ يقول :

ألا أبلغنا عني عيراك بن مالك ولا تدعنا أن تنفياً بأبي بكر
فقد جعلت تبدو شواكل منكما كأنكما بي موقران من الصخر
ولا نأنفا أن نسلأ ونسلما

فا حشي الإنسان شراً من الكبير^(١)

فهو يضرب عليها قسوتها وكان لها قلبين من حجر لا يلين ، ويدعوها أن يسلمها عليه ولا يستكبرا، فشر الأخلاق الاستكبار.
ولأحمد بن المذلل مقطوعة يعاتب فيها أبا حفص الراسي، وكان أحمد اعتل فلم يمه أبو حفص، وكان صديقه، ولزمه في علته سليمان بن حرب، وشر بن داود المهلي، فكتب إليه أبو الفضل أحمد بن المذلل :

سلامُ أبا حفص عليك ورحمة وإن كنت عنا نائياً متجافياً
كففاك سليمان بن حرب هياتي وما زال بئسراً بالزيارة وافياً
وما منهما إلا تراخيتُ دونها وما كنت عن كليهما متراخياً
وقد قال بمض المنصفين مقالة منصت مثلاً بين الأخلاء جارياً
« وإني لأستحي أخى أن أرى له علي من الحق الذي لا يرى ليا »^(٢)

وكثيراً ما يلقانا في تضاعيف القصائد والقفاوعات صور من زلات الأصدقاء وهفواتهم، على هذا النحو^(٣)، وهي صور سبقوا بها إلى هذا الباب من الشعر،

- ١ (الأغانى (الثقافة) ١٤٠/٩ ، وانظر أمالي المرتضى ٣٩٩/١ ، والمهر لابن حبيب ٢٩٧ .
- ٢ (اللوشح ص ٣٤٤ ، والبيت الأخير لجرير اتبسه ابن العذل .
- ٣ (وانظر في ديوان النذلي ١٤٤ و ١٦٨ و ٢٠٧ و ٢١٩ و ٢٤٥ ، وانظر قصيدة =

وتنحوه على مصراعيه للشعراء اللاحقين .

٣ - المهجاء :

لاحظنا كثرة العتاب في شعر الفقهاء ، وهي كثرة تلقي بعض الأضواء على موضوع المهجاء وما يتصف به من قسوة وتأخر عن كثير من الموضوعات الأخرى ، ولا ريب أنهم تبدلوا بكثير من مواقف المهجاء عتاباً رقيقاً يبي ولا يهدم ، ويصلح ولا يفسد ، ومن هنا كان المهجاء قليلاً كما ذكرت ، ولم يكن يبلغ معشار القدي عرف لدى أهل النقائص والشعراء المهجائين من أمثال ابن مفرغ ، والحكم بن حيدل وثابت قطنه في العصر الأموي ، وأبي عيينة المهلي وعبد الممد بن المذلل في العصر العباسي الأول .

وكما يثبت انطلاق الشعراء في عتابهم من زعة إسلامية أصيلة ، كذلك تبدو هذه الزعة نفسها في كثير من هجائهم ، سواء السياسي والاجتماعي ، والخلقي .
وأقصد بالمهجاء السياسي ما يتزع فيه الشعراء عن نظرية في الحكم أو رأي في السياسة ، ومعلوم ان أبا الأسود الدؤلي كان من شيعة الإمام علي ، فلما تولى الأمويون شؤون الخلافة الإسلامية ، بعد مقتل الامام ، نكبوا شيعة ، وتآروا منهم ، وكان مما أصاب أبا الأسود من ذلك أن أقبل من منصب ارتق إليها في حكومة الامام ، هما ولاية البصرة وقضاؤها ، وعين زياد بن سميئة محافظاً ، أو والياً للبصرة ، وكان بينه وبين أبي الأسود جفاء قديم^(١) ، فحصل ينتقم منه^(٢) ، فقال :

أقول وزادني غضباً وغبطاً أزال الله ملك بني زياد
وأبدم كما غدروا وخانسوا كما بعدت ثمود وقوم عاد
ولا رجعت ركاتهم إليهم إلى يوم القيامة والتناد^(٣)

= لحي بن أكرم في أخبار القضاة ١٦٤/٢ ، وأيضاً لابن عتبة في الغد الفريد ٢٣٢/٢ ، ومقطوعة لعل بن حجر في ترويح بغداد ٤١٧/١١ .

- ١ (انظر ديوانه ص ٢١٦ ، إذ يذكر كيف ينتقمه زياد بشره ، في زمن علي ، وزياد هو زياد بن أبيه نفسه .
- ٢ (انظر ديوان الدؤلي ٢١٩ ، حيث يشكو من قلة تنفيذ زياد لحاجته .
- ٣ (ديوان الدؤلي ٢٤١ .

ومن الهجاء السياسي ما قاله ابن شبرمة في عداوة بن علي عم النصور ، وكان ثار عليه في جهات حلب وإبمه جنوده عام ١٣٧ هـ غير أن الخليفة وجهه إليه حشداً ضخماً بقيادة أبي مسلم الخراساني فترقى جموعه وعين ثورته :

وقل لأخي مكاشرةً وضغنٍ سمرت الحرب بين بني أبيك
وأورثت الضغان في بينهم بني أبنائهم وبني أبيك
فلو شاورتني وقيلت رأيي لبرت لهم بسيرة أوليك
وأفترت الملامة حيث حلت ولم تعرض لملك بني أبيك
كأنك قد أصابك سهمٌ غربٍ وأسلمك العداة من إبيديك^(١)

فهو يشنع عليه قتلته التي أورثت السياسيين الخلاف والبغضاء .
وإل جانب الهجاء السياسي نجد في شعر الفقهاء هجاءً اجتماعياً ، فابو الأسود يتذمّر من مملعة جاره ، وأفاده ، بل يضطر إلى بيع داره حتى يتجنب شره وفيه يقول :

فإن أعف يوماً عن ذنوبي وتمتدي فإن العصا كانت لميرك تُقرع^(٢)
وشتان ما بيني وبينك إنني على كل حال أستقيم ونظلم
تصبح وتسنشلي كلاباً تهرتني وتشرعني فيما أردت وتشرع^(٣)

ومما يدخل في الهجاء الاجتماعي استنكار ابن المبارك على المتمصّين من ذوي الصدور الضيقة والنظرات القريبة الذين يتشبهون بعلي فيسندهم تشييمهم إلى كره والمناينة ، أو يتصورون لابن عفان فيحطون من قدر الإمام علي ، فإن المبارك يطن بصراحة كراهيته لهم جميعاً ، واستصناره لما ابتدعوه من انشقاق في الصف

(١) أخبار القضاة ٩٤/٣ ، ومكاشرة : عداوة ، وضغن : حقد ، وأصاب : سهم غرب : أي لا يدري رايه .
(٢) يشير إلى التل : « إن العسا قرعت لذي الحلم » ومعناه أن الحكيم إذا به انتبه .
(٣) ديوانه ١٤٩ ، وظلم : همز في مثيه ، تسنلي : تقري .

الإسلامي :

ما يعلم الله من قلبي مشايمةً للبعضين علياً وإن عفاناً
إني لأمنحهم بنفسي علانيةً ولست أكتهم في الصدر كتماناً
ولا أرى حرمة يوماً لبتدعٍ وهنا يكون إذن مني وإدهاناً^(١)
وكما شنع ابن المبارك على بدعة التفرق نعى الشافعي على بعض القضاة الذين حكموا أهواءهم وعتوا عن أمر دينهم :

قضاة الدهر قد ضلوا فقد بانت خسارتهم
فيساعوا الدين بالدنيا فارتجت تجارتهم^(٢)

وإذا تركنا الهجاء السياسي والاجتماعي وجدنا نوعاً ثالثاً يفوقها أحياناً ، ويعد أم ضرور الهجاء في شعر الفقهاء ، وهو ما يعرض للجانب الخلفي ، ويتناول الصفات الذميمة ويجرحها بتجريح من يريد أن يستأصلها من شأفتها . فلهو في أثناء هجائه - بسبب الضلالة والنوابة^(٣) ، والثرثرة والحنق^(٤) ، والشح والمهاملة^(٥) ، وله أبيات في هجاء أبي عمير ، تسمه بالكذب والجهر ، وأنه مع كذبه يراهى لمن يمدته وكأفما أوتي العلم الجامع ، والمعارف النادرة :

لعمرك ما وجدتُ أبا عميرٍ صدوقاً في الحديث ولا علياً
يكتمني ويخالج حاجيه لأحسب عنده علماً قديماً
جزاك الله ما يجزي كذوباً أئيماً قال هبتاناً عظيماً^(٦)

وعن سلكوا الهجاء الخلفي عروة بن أدينة ، فهو يستنكر بمن يهجو أن ينمى على الكرام الذين غمروه بفضلمهم ، فيجحد ما قدسوه إليه ، وينسى مكرتهم

(١) تاريخ ابن عساكر (ممهّد) ج ٦ ، والرعن والأدهان : الضف والين .
(٢) ديوانه ٨ ، (٣) ديوانه ١٠٩ ، (٤) ديوانه ١٣٣ ،
(٥) ديوانه ١٩٩ ، (٦) ديوانه ١٣٢ .

عليه (١) ، ويمرض في أبيات أخرى لولي يسمي إلى نفسه فيتنكب الرشد ، ويؤثر طريق التواجة والضلال ، ولكن مروءة يهديه نصيحته ويقوم اعوجاجه فيثوب إليه وقد هجر الصرع القديم (٢) ، ثم يهجو في نفس القصيدة قوماً بحسدونه ويقتابونه ، ويهجرون التقي ويقولون الختاً (٣) ، وواضح من هجاء مروءة ، وسائر الفقهاء أنهم يسلكون طريقة النقد المبائر لكل خصلة ذميمة غير خلقية فيدن يهجونهم ، وهي الطريقة النابذة على شرم في هذا الفرض إلا أنهم قد يسخرون منهم ويستزثوث بهم ، فالهزلي يصور «عويبراً» وهو يهدده «صورة فنية ساخرة» فيجمله كالأسد المصور بوعد ويزجر ، ويتظاهر أبو الأسود بالهيبه منه والظوف من أن يقتله :

تلبس لي يوم التقينا عويبراً

«بجائلي» في جلد أخنص بأسل

وأوعدي حتى ظننت بأنه مصيبي مثل القتل أو هو قاتلي (٤)

ومن طريف هذا النوع من الهجاء ما قاله أحمد بن أبي دؤاد ، وقد بلغه أن شاعراً هجأ الوزير ابن الزيات بسمين بيتاً :

أحسن من سمين بيتاً هجاً جحك مناهن في بيت
ما أخرج الملك إلى مطرقة تغسل عنه وضر الزيت (٥)

وهما بيتان بلغا ابن الزيات ، فرداً عليهما مشيراً إلى ما يقال من أن في أجداد أحمد بن أبي دؤاد من كان يبيع القار :

ياذا الذي يطمع في هجوننا عرصت بي نفسك للموت
الزيت لا يزري بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت
قيرتم الملك فلم يثقه حتى غسلنا القار بالزيت (٦)

١ (انظر شعر مروءة ١٨٢ وما بعدها . ٢) انظر شعر مروءة ٢٩٨ .

٣ (شعر مروءة ٢٩٦ . ٤) ديوانه ١٩٠ .

٥ (انظر أبيات أحمد وابن الزيات في الطبقات السنة ٣٥٦/١ ، ووفيات الأعيان ١/٧٢٢ .

وال جانب الأسلوب الساخر سلك الهزلي طريقة «التبريض» ، وقد رأينا هتابة لأبي الجارود الشاعر ، وكيف عدت أبو الجارود عتابه هجاء ، وردت عليه ، ثم تبادلوا التبريض في هذا الشأن ، وقد أرتج على أبي الجارود مرة فأجاب عنه عطية بن سمره الليثي ، فقال أبو الأسود بمرض به :

ألم تر أني والتكرم شيمي وكل امرئ جار على ما تمودا
أطهر أوابي عن الندر والخنا وأنحو إلى ما كان خيراً وأجددا
وشاعر سؤفه يهضم القول كله إذا قال أقوى ما يقول وأسندا
صفحت له بعد الأناة فرعته بجرأة لم يعلم لها كيف أرمدا (٧)

فهو يريد من عطية أن يتبع «ما كان خيراً وأجددا» فلا يتنظم مع الذين يهجونه ، ومن ثم لا يكون مصيره مصير أبي الجارود الذي راعه وأخذه . فقد استنق الشراء الفقهاء بالتاب عن هجاء كثير ، وكانت القيم التي ذمواها - في جملتها - مما أوسد الإسلام أبوابه ، وكان هجاءهم على ثلاثة ضروب : سياسي ، واجتماعي ، وخلق ، ويسلك في النوع الأخير جمرة ما تركوه في هذا الفرض من الشعر ، وهم يهجون - في الغالب - هجاء مباشر ، غير أنهم قد يسخرون ممن يهجونهم سخرة ، وقد يمرضون بهم تبريضاً .

٤ - الرقاه :

كان الشراء الفقهاء - كلما تحطفت الموت لهم قريباً أو عزيزاً - فجموا به وبكوه - صنيع غيرم من الناس - بكاء طراً ، سواء كان خليفة طالاً ، أم علماً جليلاً ، أم أباً شقيقاً ، أم أخاً ودوداً ، وربما رثوا أنفسهم ، أو شيعتهم أو أصدقائهم ، وفي كل ذلك يجعلون للاعتبار نصيباً كبيراً .

ومعروف ما كان عليه أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز من تقوى واستقامة جيبته إلى فريق المسلمين كافة ، فحفضوا له جناحهم ، وأخلصوا له قلوبهم جيلاً وميتاً ، ومما رقاه به محارب بن دثار ، وكان من المرجحة (٨) ، قصيدتان تفيضان دمعاً

١ (ديوانه ١٨٣ . ٢) تهذيب التهذيب ١٠/٥٠ .

وموحدة، وهو يردد في أولها أن الموت لوترك مخلوقاً أمده لترك عمر، فقد نصر
 الحق وأبده، فكان أملاً أن يكون مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر (١)، وفي
 القصيدة الثانية يمدد له خصاله التي ائتم بها، وما بذله لشعبه من حديد ورواية
 واعتماد، فكان الأراذل واليتامى والمساكين والفاقرين، وغمر برؤم الفقراء والأغنياء،
 وشمل حيلته المستغنيين والأقوياء، وإنك ما نظرت في بسو ولا حنصر، وما
 رأيت غزب مجاهدين، إلا وجدت أمير المؤمنين يفيض عليهم من عدله وحكيمته
 وسياسته الرشيدة التي سلكها الخلفاء في صدر الإسلام، وذلك الذي بلته قلوب
 المسلمين، فقام بناسيه أبداً:

سلامُ الله والصلواتُ منهُ على عمرٍ يرْحَنُ ويَعْتَدِنَا
 وأفضلُ ما أتَابَ وليَّ عَهْدِ آبَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 جُزَيْتَ عَنِ الْأَرَامِلِ وَالْيَتَامَى وَعَنِ مَسْكِينِنَا وَالْفَارِمِينَ
 وَعَنِ فُقَرَاءِنَا وَذَوِي غِنَانَا جِزَاءَ الْمُقْسَطِينَ الْمَادِلِينَ
 وَسِعْتَ بِفَضْلِ حِلْمِكَ فِي وَقَارِ عَلَى الْكِبْرَاءِ وَالْمُسْتَضْمِقِينَ
 عَلَى الْحُضَارِ وَالْبَادِينَ مِنَّا وَلِلْفَازِينَ تَعْرِ الْمَسْلُومِينَ
 تَقَسَّطَ بَيْنَهُمْ حُكْمًا وَعَدْلًا بِهِ حَكَمَ الْوَلَاةَ الْأَوْلُونَ
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جُزَيْتَ خَيْرًا فَلَنْ نَسَاكَ آخِرَ مَا بَقِينَا (٢)

ويضي في نفس القصيدة فيبعد على الأسماع رافة عمر بالرعية، وعمله في
 البرية، وإحياء السنن والأحكام، وحشده الهندي على المزيد من الاستبصار، وهدية
 الفاطلين إلى سواء السبيل، وما زال على هذا النهج القويم حتى نماء السلوون.
 وعن رقام الشعراء الفقهاء أئمة العلم من أشباه الإمام مالك بن أنس الأصبحي

(١) أنظر الأبيات في أخبار القضاة ٣٢/٣، وحلية الأولياء ٣٢١/٥.
 (٢) أخبار القضاة ٣٢/٣.

وكان ممن يقدره فدره عبد الله بن المبارك، فلما أن توفي سنة مائة وتسع وسبعين
 للهجرة قال في رثائه:

صموتُ إذا ما الصمّتُ زَيْنَ أهلهِ وَفَتْنَانُ أَبْكَارِ الْكَلَامِ الْمُخْتَمِ
 وَعَى مَا وَعَى الْقُرْآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ

وسيطت له الآداب باللحم والدم (١)

فالإمام مالك يسكت في حين السكوت، ولكنه - إذا تحدث - جاء بالنادر
 المشجب من القول، وقد استوعب حِكْمَ القُرْآنِ الكريم في صدره، وتشرّب
 آدابه حتى انتمس فيها لحمه ودمه، فما زاه يصدر فيما يقول، أو يفعل، إلا عن
 الذكر الحكيم، وكأنما «كان خلقه القرآن».

وكما كان يفجهم فقدان الخليفة المادل والمالم الجليل كان يفجهم أيضاً فقدان
 أقره الأئمة من أمثال آبائهم، فيشعرون باللوعة البالغة والحسرة المصنية. ومن
 رثوا آباءهم محمد بن أبي السناحية في قوله:

يَا أَبِي ضَمِكَ الثرى وَطوى الموتُ أَجْمَكَ
 لَيْتَنِي يَوْمَ مُمْتُ صِرْتُ إِلَى حُفْرَةٍ مَمَكَ
 رَحِمَ اللهُ مَصْرَعَكَ بِرَدِّ اللهُ مَضْجَعَكَ (٢)

ولم يكن مصابهم بأشفاقهم بقل عن مصابهم في آباءهم، ولما احتفظت المصادر
 لمرور بن أذينة في رثاء أخيه بكر قوله:

سرى همي وهم المرء يسري وغار النجم إلا قيس فتر
 أراقب في الجرة كل نجم تمرض للجرة كيف يجري
 لهم ما أزال له مديماً كأن القلب أضرم حرَّ جمر

(١) العقد الفرید ٢/٤٧٤، وأظفر «عبد الله بن المبارك» للدكتور عبد الحميد الخشت ١٦٦،
 وسيطت: خلطت. (٢) الأغانى (الطبعة) ١١٤/٤.

على بكر أخي وأبي حميداً وأبي الميث يصفو بعد بكره^(١)

وبدكر أبو العرج أن الوليد بن يزيد هلك على هذه الأبيات - لما سمها -
يقوله : « وأبي الميث لا يصفو بده » هذا الميث والله الذي نحن فيه على رغم
أنفه^(٢) ، وكان في مجلس عشاء^(٣) ، ومرض صاحب الأغانى رواية أخرى بعقب
فيها ابن أبي عتيق على أبيات عمرو : « كل الميث والله يصلح بده حتى الحبيب
والزيت^(٤) » ، وكأما غاب عن الوليد وابن أبي عتيق أن المرثي أخو الشاعر ، وأن
من فطرة الإنسان - شاعراً وغير شاعر - أن ينظر إلى أهله وأحبته وذويه نظرة
خاصة يحملها المطب والمودة والقربى تتنازع دائماً من النظرة إلى من - سواء ، وإن
كانوا يأكلون مما يأكلون ، ويلبسون مما يلبسون !

وعلى نحو ما رثي عمرو أخاه بكره ، ندب حيتان بن علي شقيقه ميثلاً ،
وكانا فقيرين من أصحاب أبي حنيفة ، فقال :

عجياً يا عمرو من نهضتنا والمنايا مقبلات عنقا
قاصدات نحونا مسرعة يتخللن إلينا الطرقات
فإذا أذكرك فقدان أخي أتقلب في فراثي أرقا
وأخي أي مثل أخي قد جرى في كل حين سبقا^(٥)

ومن طريف ما ورثناه عن الفقهاء في هذا الموضوع مقطوعة الإمام الشافعي
رثي فيها نفسه رثاه بذكرنا بالقصيدة الغدة التي سجلها الشاعر العربي للملك بن الربيع ،
وكان الإمام الشافعي اشتكى بمرض شكوى عاده فيها بعض إخوانه ، فلهوا جيبته ،
وقالوا له : أنت بخير ، ونحو هذا ، فقال :

أقول لما رثي وشجعوني وغرهم فتور حسي جيبتي

(١) و(٢) و(٣) و(٤) الأغانى (المهجة للصريه) ٨ / ٣٣٤ ، وسرى : حاج بلا ،
وقيس : قدر .

(٥) الجواهر المنيحة للقرشي ١٨٤/١ - ١٨٥ ، و ١٨١/٢ .

نمزوا بالتصبر عن أخيم فضجوا بالبكاء وودعوني

فلم أدع الأنين لقليل سقمي ولكي ضعفت عن الأنين

سأصبر للحصام وقد أتاني وإلا فهو آت بعد حين

وإن أسلم يمت قلمي حبيب وموت أحبتي قلمي يسوني^(١)

ومعلوم أن الشافعي لم يؤم مصر إلا في أواخر حياته ، فيكون - في أغلب
الظن - قد قال الأبيات في مرض وفاته .

ومن ألوان الرثاء التي طرفها بعض الفقهاء في شرح الرثاء المذهبي ، وما بقي
لهم في هذا اللون نسي أبي الأسود الدؤلي للشعبة وعلى رأسهم الحسين بن علي
وحواربته الذين سقطوا منه في «الطف» ، وله فيهم قصيدتان يشتم في الأولى
قائلهم بأنهم ظالمون ملعونون ، ويعلن أنه سوف يجعل لهم من نفسه «جثة» واصبراً ،
لعله ينهل من حوض الرسول ويفوز بالثمة الدائمة^(٢) ، وفي القصيدة الثانية يتفجع
على شهاده الطف ، ويدعو بني قشير أن يستصروا خير الناس من بني هاشم فيقول :

يا ناعي الدين الذي ينمي التقي قم فأنعه والبيت ذا الاستار

أبني علي آل بيت محمد بالطف تقلم جفاه نزار

سبحان ذي العرش العلي مكانه أنسى يسكاره ذو الأوزار

أبني قشير إنني أدعوكم للحق قبل ضلالة وخسار

كونوا لهم جنناً وذودوا عنهم أشياع كل منافق جبار

وتقدموا في سهمكم من هاشم خير البرية في كتاب الباري

بهم اهتديتم فاكفروا إن شتمتكم وعم الخيار وعم بنو الأخيار^(٣)

(١) هجة المجالس ١/٢٦٣ ، والحجى : السخونة والمرض .

(٢) انظر ديوانه ١٨٠ .

(٣) ديوانه س ١٨٢ .

وكان إلى جانب الألوان التقدمية من الرثاء، سادة ذوو شرف وكرم، وكان
بعضهم أصدقاء مخلصين للفقهاء، فاضوا بندوبهم، بمد وقاتهم، ويدفون عليهم الصمغ
السخي، وقد كان عروة بن أذينة يُعجب بمصعب بن الزبير قائد كتائب أخيه عبدالله
وبعاص بن حمزة بن عبدالله بن الزبير، وكان سيِّداً سرياً، ومفكراً ليلاً، غدير
أن رحى الموت دارت بمصعب وبعاص، كما دارت بغيرهما، فقال عروة:

ذهب الزمان بمُصعبٍ وبعاصٍ وكذاكَ يَفْجَعُ رَبِّيهُ بنواقر
ذهباً وكانا سيِّدينِ كلاهُما في بيتٍ مكرمةٍ وعزٍّ قاهرٍ^(١)

ويبدو أن عروة كان على صلة طيبة بعاصم، إذ زاه في موضعين آخرين من
ديوانه يتفجع عليه تفجماً مراراً، فيذكر في السكان الأول أرقه وحزنه لصاحبه فيه،
ويستد له من محامده الكرم والشُّنن والاقدام، ويدعو الله أن يجزيه خيراً، حيثما
أمت أعظمه، ويشير إلى أن "ليس شيء من الدنيا وما فيها يدوم" (٢)، ويهود
في الوضع الثاني إلى ذكر حزنه بل هملان عينه عليه، ويردد ما كانت يتشم به
من سخاء ونفوذ، ويتأثم "أن قوى في المراق رسماً قريباً، لا في ديار أهلها
بالحجاز، ويمدح قومه «الزبيرية»، وطيب خيالهم، وهو أمجادهم، ومرافقة محثِّمهم،
وقد ورث عاصم عنهم ذلك جميعاً واستقام عليه، ويحتم عروة قصيدته بقوله:

مَنْ يَلْمُ في بَكَائِهِ لا أُطِئُهُ وَأَقْلُ مِثْلُ عاصِمِ أبكاني
من بصادي سُخْطِي ويَحُلُّمُ عني وإذا قلتُ مَنْ لأمرِي كفاي^(٣)

ولمنا لاحظنا فيما تقدم من الأشتار في الرثاء ما تقسم به من زعة اعتبار
وانساق بمرئيتهم، فليس شيء من الدنيا وما فيها يدوم - على حد تمييز عروة - والنابا
والنابا لا يتخلثن إلينا الطرقات، كما يقول حيثان، وترداد هذه الزعة جلاء في
مثل قول الشافعي بيزمي عبدالرحمن بن مهدي في ولده الفقيده:

(١) لب قريش للمصعب بن عبدالله ٢٤١، والذواقر: الدواهي.
(٢) شعر عروة ص ٣٦٩ وما بعدها. (٣) شعر عروة ص ٣٩٦، وبصادي: يسكن.

لإني أعزيتك، لا أني على طمع من الخلود، ولكن سنة الدين
فما المعزى بباقي بعد صاحبه ولا المعزى وإن عاش إلى حين^(١)
فاللوت - كما أتى على الفقيده - فإنه أت لا محالة، على المعزى والمعزى
سواء. ولاحمد بن أبي مؤاد أبيات يرثي فيها كاتبه أحمد بن شهاب الأنباري، وهي
تفيض بالسيطرة والانساط، وتجري على هذا النمط:

إنَّ المشيبَ نَمَى إلى شبابي وَحَدَّتْ بموتِي مِيتَةُ الأترابِ
طوراً أعادُ ونارة أنا عائدُ أو دافِنٌ حيناً من الأجابِ
فألى متى ألتقي وأسمع ناعياً أو شِكْ بقرع يد الميئة باني
لا بد من موتٍ وبعثٍ بعده وموافقٍ تُحشَى وعرضٍ كتابِ
وجلاً فياً حزناً لبعثٍ مسافِي وقليلٍ زادي وانترابِ ذهابي^(٢)

فكما مضى ابن شهاب في حلية الموت؛ فإن أحمد لا بد سالك سبيله، فهذا
شبيه ينمى إليه ربيع حياته، وهؤلاء أخلاؤه، الذين لا يصنرهم محرراً، يُشيمون
إلى مناهم، وهو يتلقى - كل يوم - من الموت نذيراً، من مرض يحل به أو
بغيره، ومن وفاة أحبته فيدفنهم بيديه، ويدرك أن ميته قريبة دائية، وهي منية
لا بد بعدها من بعث وحساب شامل لكل ما قدم في دنياه، وهذا يتذكر يُعد
الشقيقة أماته، ومصاعب الطريق، فيلوم نفسه على قلة ما أعدته ليوم الرحيل،
وقد أوزف أوائه.

فقد بكى الفقهاء - في رثتهم - الخليفة المادل، والفقهاء العالم، والأب الشفيق،
والأخ الودود، ونموا أنفسهم، وشيبتهم، وأصدقاهم، واعتبروا بموت هؤلاء جميعاً،
وكانوا - كما شيموا واحداً منهم - هتفوا له هتاف الموت على لسان عروة:

(١) مجمع الأدباء ٣٠٨/١٧، وشرح اللغات للشريفي ١٣٨/٧، وتاريخ دمشق لابن عساكر
للدمد (٢٠٦/١٠)، ومنتخب الشافعي للبيهي ٩٠/٢، والدمد الفريد ٣١٠/٣.
(٢) أخبار القضاة ٢٩٩/٣، وجلاء: مقصور من جلاء أي انضاح الأعمال وتبانيها.

فَنِعَمَ الشَّيْءُ كُنْتَ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا يَدُومُ (١)
المدح :

بمد المدح آخر الأعراس الشعرية التي طرقها الفقهاء ، وأعاب الظن أنهم لم يُعْرِطُوا فِيهِ خَشْيَةَ أَنْ يَقْسُوا فِيهَا اسْتِكْرَاهَ الدِّينِ الْحَنِيفِ مِنَ الْمُبَالِغَةِ فِي الْمَدْحِ مِبَالِغَةً تُوَدِّي إِلَى اقْتِرَارِ صَاحِبِهِ وَفَيْتَنَتِهِ ، وَذَلِكَ مَا ذَمَّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ فِيهِ عِنْدَ مَا سَمِعَ رَجُلًا يُقِي عَلَى رَجُلٍ وَبَطْرِيهِ فِي الْمِدْحَةِ : « أَهْلَكْتُمْ الرَّجُلَ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ » (٢) ، وَمِنَ الْحَقِّ أَنْ جَمْعُهُ الَّذِي خَلَقَهُ الْفُقَهَاءُ فِي هَذَا الْبَابِ تَنَكَّبَتْ الْمُبَالِغَةُ الْكُرُوهَةُ ، وَتَحْيَّرَتْ الْمَوْضُوعَاتُ الَّتِي تَنَأَى عَمَّا يَحْدُثُ مِنْهُ الْإِسْلَامُ مِنْ الْإِقْتِرَارِ وَالِافْتِنَانِ ، فَدَحُوا النَّبِيَّ الْكَرِيمَ ، وَفَرَّقُوا مِنَ الْخُلَفَاءِ ، وَأَعْمَلُوا الْعِلْمَ وَالْتِقَاؤَ ، وَالْقِسَادَةَ ، وَالسَّادَةَ الْأَنْتِرَافَ .

قالنعمان بن بشير بصرح بزمه على ترك الشعر ايجمل اهتمامه كله في الاسلام ، فهو خير منه وأرشد ، وإذن ان يطرق من الشعر إلا ما كان ثناء على الله سبحانه أو مدحاً للنبي عليه الصلاة والسلام الذي دعا الناس إلى الهدى ، واعتمد بالحق في شيابه وكهولته :

فهذا وإني تارك الشعر بمدحها خير من الشعر اتباعاً وأرشداً
سوى مدحة لله أو ذكر والد علي والده الأقبام فضلاً وسؤددا
إمام الهدى للناس بالحق لم يزل

على ذلك كهنلاً في المشيب وأمرداً (٣)

وعروة بن أذينة - عندما يفخر بالرسول - يذكر كيف اهتدى الناس به ، بمد أن كانوا يتخجلون في ظلمات الجاهلية ، فوضح لهم السبيل ، وحفقت قلوبهم بمشاعر الايمان :

منا الرسول نخير الناس كلهم ولا نحاشي من الأقبام إنسانا

(١) شعر عروة ٢٧٢ . (٢) رياض الصالحين ٤٢٧ . (٣) شعر النعمان ١٠١-١٠٢ .

وذاك نورٌ هدى الله العباد به من بمد خبثهم صمتاً ومحميانا
فأبصروا فاستبان الرشد مشمرة بمد الضلال قلوب الناس إيماناً (١)

ومثن حطبي بتدريج الفقهاء طائفة من خلفاء السلفين ، فابن المبارك بصرح بحبه لعلي وعثمان ، فقد كان للإمام قدم صدق منذ فجر الدعوة ، وكان ههنا تقياً ورعاً ، فيدعو الله أن يشبهه مغفرة من لذته ورضواناً (٢) ، وكان أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة لهمد المتصم ، وزاه يكنيه بابن عم النبي ، ويذكر أن كل بقعة من الأرض - سوى التي يحل فيها الخليفة - قفر موحشة ، فهو نور الريح ، والخدير الذي يرم الناس كافة ، وإن له في قلوب الأعداء رهبة وخشية ، وإنه زينة الدنيا وهجة الحياة :

يا بن عم النبي لا أنس إلا حيث خيمت من جميع البلاد
أنت نور الريح تفتقر الأرض إليه لحاضر ولبياد
فإذا خيمت ركابك أرضاً أزعجت خيفة قلوب العباد
زدتها فاستزدت بهجة دنيا ك فوافيتما على ميماد (٣)

وعلى هذا النحو مضوا يمدحون الفقهاء العلماء والأتقياء الورعين ، ومثن برز في هذا المجال ابن المبارك فمدح الإمام أبا حنيفة وأشاد بدقته قياده ، وفزارته اطلاعه ، وعكفته أن يسد الفجوة المشمة التي تركها موت شيخه حماد بن أبي سليمان (٤) ، وزاه في موضع آخر يتنى أيضاً بمواهب الإمام فيقول :

لقد زان المسلمين وما عليها إمام المسلمين أبو حنيفة
بأثار وفقه في حديث كآيات الزبور على الصحيفة
فما في المشرقين له نظير ولا بالمغربين ولا بكوفة

(١) شعر عروة ١٣٤ . (٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (سهد) ج٦ (عبدالله بن المبارك) . (٣) أخبار القضاة ٢٩٩/٣ . (٤) انظر الايات في تاريخ بغداد ٣٠٠/٣ .

رأيت المايين له سفاهاً خلاف الحق مع حجج ضميمته^(١)

وتؤيد هذه الآيات ما تقدم من أن أبا حنيفة كان يترواه بتعدد جم كثير من السنة النبوية، وأنه لم يكن يسلك الرأي ما وجد كفايته في الحديث الموروث، والآثار الباقية.

ومن الذين مدحهم ابن المبارك أيضاً مسر بن كدام^(٢)، وحماد بن زيد، وكان حماد شيخه فمضى يقول فيه:

أبها الطالبُ علماً إبتِ حمادُ بنُ زيدٍ

فخذ العلمَ بحكمٍ ثم قيده بقيد^(٣)

وعن مدحهم ابن المبارك جماعة أفتاء ورعون كانوا محبوبون لياليهم في عبادة الله يرجون رحمته ويخافون عذابه:

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدوه فيستفروا عنهم وهم ركوعُ
أطوار الخوفِ نوسهم فقاموا وأهلُ الأمنِ في الدنيا هجوع^(٤)

وعن قالوا إعجاب الثمراء الفقهاء فأتبوم مدحاً حسناً فربق من القادة والسادة ذوي الشرف والنبيل، فتربيع بن الحارث مدح حبيب بن منسامة القهري، الذي كان في بلي الولايات زمن عثمان ومعاوية^(٥)، وهو الذي بثته معاوية لنصرة عثمان فلم يدركه حتى قتل^(٦)، وعروة بن أذينة مدح أبا شاعر مسلمة بن هشام بن عبد الملك^(٧)، ولعل أبا الأسود الدؤلي أبرز الذين أسهموا في هذا المجال، ومرد ذلك - في أغلب الظن - إلى ما ابتلي به يوم انتصر بنو أمية، وانطوى عهد

- ١ (الفهرست ٢٨٤ ، وعيون التواريخ حوادث سنة ١٥٠ .
- ٢ (انظر تذكرة الحفاظ ١٨٩/١ ، وتهذيب التهذيب ١١٥/١٠ .
- ٣ (تاريخ الوصل للأزدي ٢٨٣ ، ومختصر جامع العلم وفضله ٦٤ .
- ٤ (إحياء علوم الدين ٣٦٩/١ . (المعارف ٦١٥ .
- ٦ (انظر كتاب نسب فريش للصب بن عبدالله ٤٤٧ ، وأخبار القضاة ٢٠٤/٢ .
- ٧ (الأغانى (المصرية) ٣٢٥/١٨ .

الإمام علي بن أبي طالب، وكان من شيمته، فأفلتت من يده ولاية البصرة، وأفلت منه قضاؤها. وبلغنا في ديوانه عدة مقطوعات في مدح أسدائه الذين لم يرضوا أن يقدموا إليه - وهو في نكته - أبدي السخاء والوفاء، ومن هؤلاء أبو ماهر^(٨)، وكان عادلاً لمبيد الله بن زياد على جنديساجور، فأبر به إذ قصده وأكرمه، وعبد الله ابن أبي بكر، وكان قد رأى عليه جيئة رثمة كان يكثر لبسها، فقال: يا أبا الأسود أما تمل هذه الحية؟ فقال: رب يملول لا يستطيع فرائه، فلما خرج من عنده بعث إليه مائة ثوب، فكان ينشد بعد ذلك - وقيل إن هذه القضية جرت له مع المنذر بن الجارود -:

كسائي ولم استكسبه فحمدته أخ لك يمطيك الجزيل وناصر

وإن أحق الناس إن كنت شاكرًا

بشكرك من أعطاك والمرض وافر^(٩)

وعلى هذا النحو بثي على بجير بن ريسان الجعفي^(١٠)، وعبد الله بن أبي بكر^(١١).

وأغلب الظن أنه انضح ما ذكرناه عن المدح واعتداله، فهو لم يسجد بتجاوز - في جملة - الثناء على الرجل إلا بما هو فيه، على حد قول عمر أمير المؤمنين، وقد كان مدح الفقهاء - على قلته - يتجه إلى النبي ﷺ، وفريق من خلفائه، وأهل العلم والتقوى، وبعض القادة الأفاضل، أو السادة الشرفاء.

- ١ (انظر ديوانه ١٦٤ . (٢) وفيات الأعيان ٢٠٧/٢ ، ومرآة الجنان ٢٠٥/١ .
- ٣ (انظر تاريخ مدينة دمشق (دار الكتب) ٥١٠/١٨ . (٤) الأغانى (الثقافة) ٣١٧/١٢ .

الفصل الأول

الإبداع الفني في شعر الفقهاء

من الأحكام الشائنة التي لا تنهض على قواعد سليمة ما يردده بعض القوم من أن شعر الفقهاء نظم عقيم ، ليس ثمة فيه نبضات حية ، ولا تدفق شعوري ، وليس فيه انفعال ولا تجربة ، وليس فيه خيال تصويري ، ولا إحصاء ملج ، ولا إيقاع موسيقي . . . وهي أحكام لست أترده أي ترده - بعد أن رجعت بصري في شعر الفقهاء طويلاً - أن أرمي بها عرض الحائط ولا أقيم لها وزناً ، وأن أسلكها مع أمثالها من الأحكام التي ابتليت بالتميم ، ثم رأت عليها - من بعد ذلك - الإهمال الخامل وغفلة التمهين .

وأغلب الظن أن الذي أولعهم في تميمهم هو ما رأوه لفقهاء من منظومات في أصول هذا العلم وبعض أحكامه ، وهي منظومات لم أر واحدة منها في شعر الفقهاء حتى نهاية العصر السياسي الأول ، اللهم إلا أحياناً معدودة لا تكاد تبين ، وسوف أعرض لها في ظاهرة النظم .

وأول ما ينبغي التنبيه إليه في شعر الفقهاء أن الذين قرضوه لم يكونوا على مستوى واحد في الفن والإبداع ، فقد كان فيهم الشعراء الأفاضل ، وكان فيهم دون ذلك ، وكان الخطأ البياني لآماد فنهم يرتفع حتى يبلغ القمة ، كما كان بسيط - أحياناً - أخرى - إلى مستوى السطو ، بحسب الشعراء ومواهبهم ، وإذا وقفنا عند أغزر الفقهاء شعراً ، ولحظنا تفاوت إجادة كل منهم في قصائده وحده ، ثم نظرنا إليهم نظرة شاملة ، رأينا التميز بين بشير والدولي بطرقان بقوة باب الشعر ، ويأتي بعدها شريح وابن عتبة فيرتفعان به إلى أهدى غاية ، ثم لا يلبث محارب بن دثار أن يمود به إلى مستواه الأول يوم بدأ ، بل إلى أقل منه ، ويخلفه عروة بن أذينة فيصمد به إلى الصف الأول من القريض ، ويليه سابق البربري ، وكأنه كان لا يزال يحتفظ بشي من بربريته فلم يستطع أن يثبت به في ذلك السنوى ، واستخف به شطر الانحدار ، وقد تماق على هذا الانحسار ابن

الباب الثاني

الشعر: دراسة فنية ونقدية

شجرة وابن المبارك، وإن استطاع الامام الأخير أن يرتفع به قليلاً، ثم تلاء الشافعي فاستمر هو ثم أبو يحيى الزمري في الارتقاء به، وختم الرحلة القاسم بن إبراهيم الرمي وعلى الرغم من فقداننا نتاجه، فإن ما بقي لنا منه يعد من أحسن الشعر.

ومن أراد أن يسمع بما أبدعه الشعراء الفقهاء وأجادوا فيه يجد مجموعة غزيرة من المقطوعات والقصائد توج موجاً بالمواطف القوية والانفعالات المضطربة والأحاسيس الشاعرة والتجارب النفسية، كما يتألق فيها صورٌ خيالية بديعة، ومشاهد فنية رائقة، ويتجاوب مع أسدائها إيقاع موسيقي يتناسب والمواطف المتأججة أو الصور المروضة.

ومن الحق أن الشعر لا يلو له شأن ما لم يقم على دعائم قوية كلشها، فينبئ موضوعه وتسمو أفكاره، وتدقق عواطفه، وتتألق صورته، وتحسن صياغته، وتتناغم موسيقاه، فإن قدمت به دعاية من تلك الدعائم هبط منواه على ندر حظه من ذلك القعود، ولن يكون شعراً رائعاً - في رأينا - ذلك الشعر الذي تنحط به أفكاره وتزديه خطايا وأوزاره، وإن بلغ قمة الانفعال والتصوير والموسيقا، وكذلك لن تتمكن قصيدة من قلوب قارئها، ولو ارتقت في فكرها ونبل موضوعها، ما لم يكن لها من الشروط الفنية السابقة نصيب محمود، وإن كنا - لتهاج النظرة الشاملة - نفضل النوع الأخير على شعر الخطايا، مهما انخرق بفته، تفضيلاً كبيراً.

ومن هنا يتضح أنني لم أقصد من وراء تقسيم الإبداع الفني في شعر الفقهاء إلى عواطف وصور وإيقاع سوى تيسير الدراسة، وتبيان أبرز مقومات الجمال فيه، فما أدرسه في «المواطف» ليس يعني أنه يخرج من الصور البديعة أو الموسيقى الموقنة، وإن كانت العاطفة أبرز فيه من ذلك المنصريين، وقس إلى ذلك ما يُدرس في الصور والإيقاع، وأيضاً حين أعرض للإبداع الفني وأبين عناصره الأولى من عواطف وإيقاع موسيقي لا يعني أن هذا الشعر سقيم الفكر منحدر الأمراض، أو أنه ركيك الببارات ضيف السبك، بل سوف نرى في الالتزام سمو الماني التي طرفها الفقهاء، وارتقاها إلى مقاصد الدين الحنيف ومبادئه السامية، وسوف نجد أيضاً في ظاهرة النظم كيف هبطت صياغة هذا الشعر به، في بعض الأحيان، وسالت دون

انطلاقه إلى الآفاق الرحيبة المسيحة التي يلنها في إبداعه الفني.

١ - أحاسيس عاطفية:

ليس من ريب أن أقوى الشعر تأثيراً في النفوس ما صدر عن عاطفة قوية متدفقة سواء كانت مضطربة ساخبة أم مترفة هادئة، وسواء بدت ظاهراً أم اختفت وخطت بجراها في الأعماق، وعندما نطالع شعر الفقهاء، ونختبر أسرار جماله، نلقى مجموعة منه تأخذنا بما فيها من تجارب شعورية، وأحاسيس رقيقة، وانفعالات ملتهبة، وإن كانت مواقفها مختلفة ومواقفها شتى، من دطاء صادق قانت، ونفحة إيمانية مشرقة، وحب قوي متمسك، لزوجة وفية، أو ولد حبيب، أو شبة مفضلة، ومن فخر بالمواهب الذاتية أو إجابة الملهوف، ومن رثاء امزير، أو عتاب لصديق، أو تجاوز عن هفواته.

فالنعمان بن بشير يتضرع إلى ربه أنت ينفر له فستشعر في تضرعه خشية مهيمة وخوفاً من عذاب الله:

ربِّ إني ظلمتُ نفسي كثيراً فاعف عني أنت الغفور الودودُ
وفيني شرٌّ ما أخاف فأني مُشفقٌ خائفٌ لما تستميد^(١)
والدولي يؤكد أن الأمر كله بيد المولى سبحانه، فنحس في أبياته، مشاعر الثقة المطلقة بالله، والاعتماد التام عليه:

وإذا طلبت من الحوائج حاجة فادعُ الإله وأحسن الأعمالا
فليطينك ما أراد بقُدرة فهو اللطيف لما أراد فصلا
إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقبَل الأحوال
فدع العباد ولا تكن بطلابهم لهجاً تَضْمَضِعُ للمبادئ^(٢)

ومن المواطف القوية ما كان يكتسه الشعراء الفقهاء لأزواجهم من حب ووجد، وكنت عرضت لذلك في النزول، ومن آثارهم في هذا الشأن أيضاً ما قاله

(١) شعر النعمان ٩٢ . (٢) الأغانى (الطبعة) ٣٠٦/١٢ .

مُتْرِبِجُ بْنُ الْحَارِثِ يَكْرُمُ زَوْجَهُ وَأَهْلَهَا بَلْ يَلَانُ فِي صِرَاحَةٍ أَنَّهُ مَسَالِمٌ لِمَنْ سَأَلَتْهُ ،
وَمَحَارِبٌ لِمَنْ حَارَبَتْهُ :

إِذَا زَيْنَبُ زَارَهَا أَهْلَهَا حَشَدَتْ وَأَكْرَمَتْ زَوْارَهَا
وَإِن هِيَ زَارَتْهُمْ زَرَّتْهُمْ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ لِي هَوَى دَارَهَا
فَسَلِمِي لِمَنْ سَأَلَتْ زَيْنَبُ وَحَرَبِي لِمَنْ أَشْعَلَتْ نَارَهَا
وَمَا زَلْتُ أُرْعَى لَهَا عَهْدَهَا وَلَمْ أَتَّبِعْ سَاعَةَ عَارَهَا (١)

وعلى هذا النحو نجد ابن عتبة يث زوجته «عشمة» هيامه وأشواقه، وكان
طلقها ثم ندم، فحصل بينها بكاء مراراً، ويعاني من ألم الفراق الذي كان يظنه من
قبل «حكمة وسداداً» :

كُنْتُ الْهَوَى حَتَّى أَضُرَّ بِكَ الْكُتْمُ

وَلَا مَسَّكَ أَقْوَامٌ وَلَوْ مَسَّ ظَلْمُ

أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تَمُوتُ فَيَتَمُوتُ عَنَّا وَلَا تَحْيَا حَيَاةَ لَهَا طَعْمُ
أَأْتَرُكَ إِتْيَانَ الْحَبِيبِ تَأْتِمًا أَلَا إِنْ هَجَرَانَ الْحَبِيبِ هُوَ الْإِثْمُ
فَذُقْ هَجْرَهَا فَدَكُنْتَ تَزْعَمُ أَنَّهُ رِشَادٌ أَلَا يَارَبَّنَا كَذِبَ الزَّعْمِ (٢)

وقد اطلق في انصافه يرفض أقوال الوشاة الذين يلومونه في لقاها ويقول :
وَأَقْبِلُ أَقْوَالَ الْوُشَاةِ تَجْرِمًا أَلَا إِنْ أَقْوَالَ الْوُشَاةِ هِيَ الْجُرْمُ
وَأَشْتَاقُ لِي إِنْصَافًا عَلَى قَرَبِ دَارِهِ لِأَنَّ مَلَاقَةَ الْحَبِيبِ هِيَ الْمُنْتَمُ (٣)
ولا يفد من هذا التوقد الشعوري ما طافه عروة بن أذينة في جبه سمدى ،
واستمع إليه بصور كيف أضرت بين جوانحه فأراد لا يذل لها قياد :

(١) الأغانى (البيعة المصرية) ٢١٤/١٧ .

(٢) الأغانى (الثقافة) ١٤/٩ ، وأظن الزهرة ١٨٤ .

(٣) الأغانى (الثقافة) ١٤٦/٩ ، ومجالس نعلب ٢٣٧/١ .

إِذَا وَجَدَتْ أَوَارِ الْحَبِّ فِي كَبِدِي

عَمِدْتُ نَحْوَ سِقَاءِ الْقَوْمِ أَبْتَرِدُ

هَذَا بَرَدْتُ بِبَرْدِ الْمَاءِ ظَاهِرًا

فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الْأَحْشَاءِ تَقْدُ ؟ (١)

وفي موضع آخر زاء يعاني من تمزق نفسي ثقيل ، فهو يتذكر سمداء فيتوق
إلى لقاها ، ولكنه يصارع نفسه لملها نساها ، فلا يزيد من الصراع إلا شوقاً
وسباباً ، وسمدى تدوم منه في بعض الأحيان غير أنه - لأسباب ما - يهجرها ،
حتى إذا نأت عنه أخذ من نأيتها هول شديد ، فهو تميم على كل حال ، في
دونها وفي ابتعادها :

فَكَيْدْتُ لَدَيْكَ رَاهَا أَطِيرُ صَبَابَةً وَغَالِبْتُ نَفْسًا زَادَ شَوْقًا غَلَابًا

إِذَا اقْتَرَبْتُ سَمْدَى لَجَجْتُ بِهَجْرَهَا

وَإِن تَقْتَرِبَ يَوْمًا بِرُغْكَ اقْتَرَبَهَا

فَفِي أَيِّ هَذَا رَاحَةٍ لَكَ عِنْدَهَا سِوَا لِعَمْرِي نَأْيُهَا وَاقْتِرَابُهَا (٢)

ومن خفت بحبهم قلوب الفقهاء خفقاناً فويماً فلذات أكبادهم ، وقرنة أصيهم ،
فقد كان الحسين بن علي يحب ابنته سكينته حباً جماً ، ويحب منها أمها الرباب ،
وهوى من أجل ابنته وزوجه الدار التي يملأ بها ، ويبدل لها كل ما يثر من
مال وعتاد :

لِعَمْرِكَ لِمَنِي لِأَحِبِّ دَارًا تَكُونُ بِهَا سَكِينَةٌ وَالرَّبَابُ

أَحِبُّهَا وَأَبْذُلُ جِلِّي مَالِي وَلَيْسَ لِعَاتِبِ عِنْدِي عِتَابٌ (٣)

واشربح بن الحارث مقطوعة طريفة كتبها إلى شيخ ولده ، يشكو فيها ابنة

(١) الشعر والشراء لابن قتيبة ٥٧٩/٢ . (٢) شعر عروة ٢٦٥ .

(٣) الأغانى (الثقافة) ٨٩/١٦ ، ونسب فريش الصعب بن عداة ٥٩ .

أنه انشغل بمبارشة الكلاب حتى فاتته الصلاة، يقول فيها:

ترك الصلاة لأكل يلهو بها طلب المهراش مع الفؤاد الرجس
فإذا أنك فمضته علامة وعظنته موعظة الأديب الكيس
وإذا هممت بضربه فبدره وإذا ضربت به تلاماً فاحبس
واعلم بأنك ما أتيت ففسته مهما يجرعنا أعز الأنفس^(١)

فهو حريص ألا يتهاون ابنه - وإن كان صغيراً - في صلاته ، ولا يتفرد
لشدة حرصه أن يوصي شيخه ليظنه وينصحه ، بل يضربه ويحبسه إن لم الأمر ،
ولكن ترحماً - وهو في زحمة اهتمامه بولده ، وغضبه لما رأى من تفسيره ، يسري
في قلبه حنان الأبوة فيذكر الشيخ بما يحيط القضية من كل أطرافها ، فولده ولده
ومها أذاه من عنتت فهو أعز الناس طراً عليه .

ومن ألوان هذه الشاعر النافذة ما تلقاه عند أبي الأسود من حب شديد
للنبي ﷺ وآل البيت ، وهو حب يبلغ فيه - إذ يصوره - أعلى مستوى رقت
إليه أثماره ، يقول في إحدى قصائده :

يقول الأردلون بنو فشير ضوال الدهر لا تنسى علياً
فقلت لهم وكيف يكون تركي من الأعمال مفروضاً علياً
أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيتا
بني عم النبي وأقريبه أحب الناس كلهم إلياً
فإن يك حبهم رشداً أصبته ولست بخطي إن كان غيا
م أهل النصيحة غير شك وأهل مودتي ما دمت حيا

(١) صفة الصفوة ٢٠/٣ ، والمحاسن والمساوي ٢١٦/٢ ، والفرد الغريد ٤٣٥/٢ ، وحلية
الاولياء ١٣٧/٤ ، والمدد ١٧/١ ، وثمار القلوب ١٧٣ ، وعبود الاخبار ١٦٧/٢ .

هوى أعطيته لما استدارت رحي الإسلام لم يعدك سويتا
أحبهم لحن الله حتى أجيء إذا بعت على هويتا
رأيت الله خالق كل شيء هدام واجتبي منهم نيتا
ولم يخصص بها أحداً سوام هيتا ما اصطفاها لهم مريتا^(١)

وال جانب هذه الشاعر العاطفية المتسكنة زى في شعر الفقهاء أحاسيس
أخرى تعين فيها نشوة الفخر والاعتزاز ، ومن أطرف ما لهم في هذا الشأن أبيات
للإمام الشافعي ، وهي أبيات تحضي في الزهو إلى أمد غاية ، وكان الشافعي قد قصد
في بعض أسفاره بلدة «سر من رأى» فقطع الفيافي الموحشة والقفار المهلكة ،
واقفات الحر والقر ، فلما بلغ تلك المدينة بأطوار رمتة وشعر أشعث أشبر ، تقدم
إلى مزين ليحلق شعره ، فأبى أن يصلحه له لما رأى من شفته وقفره ، فغضب
هناك الأيام الحليم ، والتفت إلى غلام كان معه وسأله كم فدية ؟ فأجابته : عشرة
دنانير فأمره أن يدفعها إلى المزين ، ففعل ، وقال الشافعي وهو منبسط :
مُحْتَق :

علي ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلّس منهم أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها نفوس الوري كانت أجل وأكبرا
وما ضر نصل السيف إخلاق غمده

إذا كان غضباً حيث وجهته برى^(٢)

وتبدئي أريجية الكرم ونشوة الطاء في قول عروة وهو يحكي قصة ضيف
قصد الحمي في هداة من الليل ، وأراد أن يشمر القوم بأمره فأرغى بسيره ، فما
كان منهم إلا أن أسرعوا يستضيفونه ويقدمون إليه حقه الذي ادخروه اقربى

(١) الاغابي (الثقافة) ٣٢٦/١٢ ، والوصي : علي بن أبي طالب ، والطريق السوي :
المستقيم ، وهوي : هواي .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١٦٠/١ ، وشذرات الذهب ١١/٢ ، ونور الابصار ٢١٤ ،
وحلية الاولياء ١٣١/٩ ، وبيبة المجالس ٦٣/٢ ، والمحمدون من الشعراء ١٣٩ ، ومجمع الادباء ١٧/٣٢٠ .

الأضراس ، وبصور عروة أيضاً أربحيته إذ أظن بوجه بشرٍ باسم محتاجاً استغاث به
فأطاس عليه من ماله عطاءً يقبل عثرته ويصون كرامته :

وضيف سري أرغى هدوؤاً بميره ليقرى فمجلنا القري غير عام
وكانت لنا دون العيال ذخيرةً مُخصّصاً بها حتى غدا غير لائم
وداعٍ لمعروف فزغنا لصوته بلبثك في وجه له غير واجم
فخبرته مالاً طريفاً وتالداً يصون به عرضاً له غير نادم^(١)
وواضح فرح عروة باستضافة الساري وتمجيل قراءه ، وانتشاؤه بما قدم

للمحتاج المستنبت .

ومن المواقف الانتمالية التي زارها في شعر الفقهاء نكتبتهم بأهزتهم ، وقد
استرضنا طائفة من ذلك في الرثاء ، ومن بقراً الشواهد المتقدمة يلمس الحزب
العميق ، والآسى الكئيب المتنازع .

وبشبه ذلك الأسى ما يكون من بعض الخلطاء من تنكسر للمعجبة وتناسر
لأسباب المودة مما يجعل ذوبهم بأسفون اسفاً شديداً على أهزاسهم التي لم تؤت
أكلتها إلا حطاماً هشياً ، فيما توتهم ويلهمهم .

ولأبي الأسود الدؤلي أبيات بماتب فيها زوجه فاطمة بنت دحيمي ، وكانت
أشبه امرأته وأجملها ، فالتوت عليه لها أسنٌ وتنكرت له وساءت عندها ، فجعل
يذكرها بمالك حباتها الطويلة ، فهي حبات لو كان قضاها مع «أروية» لاطمأنت
إليه وحفظتها .

وعاجبتُها ما لو صحبتُ مثله على دُعُرها أرويةً لاطمأنتُ

وقد غرّها مني على الشيب والبلى

جنوني بها ، جئتُ حياي وحنتُ^(٢)

(١) شعر عروة ١٥٣ ، وسرى : سار ليلاً ، والنهري : طعام الضيف ، وعام : حيطي ، وواجم :
عابس ، والفزع : الاثارة ، والطريف : الحديث من اللال ، والتالذ : ما ولد من اللال عند صاحبه .
(٢) ديوان أبي الأسود ١٦١ ، والأروية : ابني الرعول ، وحت إتباع لجت .

وقريب من هذه التجربة ما عناه ابن عتبة من بعض أصدقائه من تنكسر
وهقوق ، فقد كان يتجالس مع أبي بكر بن حزم وعراك بن مالك في المدينة زماناً ،
ثم إن ابن حزم ولي إمرتها وولي عيراك القضاء فيها ، وكانا يريان بصيد الله فلا
يسلّين عليه ولا يقفان ، وكان ضريراً ، فأخبر بذلك فأنشأ يقول :

ألا أبلغنا عني عراك بن مالك ولا تدعنا أن ننثيا بأبي بكر
فقد جعلت تبدو شواكل منكنا كأنكنا بي موقران من الصخر
وطاوعنا بي داصكنا ذا منعاكنا لعمرى لقد أزرى وما مثله يُزري
ولولا اتقائي ثم بقياي فيكما للتمكنا لوماً أحرّ من الجمر^(١)

فقد أمضته قساوة تنكرها ، فزعم أن يلومها « لوماً أحرّ من الجمر » ،
فمصمته تقوى الله ، وإيقاؤه للعودة القديمة سبباً لها بما بثوان إليه ، وكل ذلك
انفصالات تضطرم في صدره ، وهي من أسرار الجمال الذي يناق في الأبيات .

ولا يقل عن جمال هذا الشاب جمال الفؤ ومشارع الصبح البير ، ومن
خير ما يمثل ذلك قول الشافعي :

لستُ ممن إذا جفاه أخوه أظهر الدم أو تناول عريضا
بل إذا صاحبي بدا لي جفاهُ عدتُ بالود والوصال ليرضى
كن كاشفت لي فإني سهول

أنا أولى من عن مساويك أغضى^(٢)

فهو يكظم في صدره أذى صاحبه ، ولا ينفثه ذماً ولا شتماً بل يقابل نفسه
ويصله ، وكان شيباً من جفائه لم يقع ، ذلك أن الصديق أولى الناس أن يتجاوز

(١) الأغانى (الثلاثة) ١٤ / ٩ ، ومجالس حلب ١٤ / ١ ، وأملاني المرتضى ٣٤٠ / ١ ، والشواكل
النواصي ، والداك : الأحن الأرعن ، والمناكح : الخانة .

(٢) الشاب للرازي ٢٠٠ ، ومناقب الشافعي للبيهقي ٨٠ / ٢ .

عما قد يدر من صاحبه من هفوات .

٢ - صور شعرية :

سوف يتبدى خطأ الذين اتهموا شعر الفقهاء بالنظم أيضاً عندما تنأمل الصور الشعرية التي رسموها لا بالريشة والألوان وإنما بالكلمة المبتكرة ، وهي صورٌ تُسبِّمُ إسهاماً عربياً في إيضاح التميم الذي حفظ فيه طابو هذا الشعر ، وتكشف مدى غفلتهم عنه .

والناظر في نتاج القوم يرى لوحات فنية ، كثيرة تتناثر خلاله ، فأبو الأسود يصور الحشرجة والتزع فيقول :

أفأظمُ ما تفتن بين فيما ينوبي إذا صعدت حتى تمسُ التراقيا
وقد أرسلوا فُراطهم فتأتلوا قليلاً تزوعاً لا تَبِلُ العِراقيا^(١)
فيُلقى في الأخبلة مشهد الروح وهي تفارق الجسد ، وأوليساء الميت وهم يبادرون به إلى مشواه الأخير .

ولسابق البربري لوحة رسم اقارثها أربعة مشاهد متساقفة عن الموت ، فذاك البيوت تضر إلى حين بنضارة الحياة ... ثم تهدم ، وهؤلاء الأحياء يجمعون بريمان الشباب وروثه .. ثم لا يلبثون أن يجولوا ويفيضوا ، وهذا الموت جسر منصوب ينتهي إلى دار الحساب ، ومن فوق ذلك الجسر تهب الأجيال لتتلاقى على أرض الحشجر :
وكل بيت خراب بعد جدته ومن وراء الشباب الموت والكبير
والموت جسر لمن يمشي على قدم إلى الأمور التي تخشى وتنتظر
كل يمر عليه ثم تجممهم

دار إليها يصير البدو والحضر^(٢)

(١) ديوانه ص ١٦٠ ، والترقوة : العظم الذي بين شفرة الشعر والمناق ، والمخارط : الرائد ، وتأتلوا : هروا ، ورواية الديوان تأتلوا وهو سهو ، وتزوع : قرية القعر . والبراق : ما نفي من المزاولة ثم خرز .
(٢) شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ص ٣٤١ .

وهذه لوحة أخرى بارعة لابن عتبة ، هي - كما يقول أبو هلال السكري -
« أجود ما قيل في صفة السكران »^(١) ، إذ يصوره وهو يشرب من خمر يشبه
لونها الحيشاء ، ثم يمرض صورته وقد صرع وتعدّد بين نداماه ، وجعل يسيل
من فمه القيء والتمسب :

وشربك من ماء الكروم كأنه إذا مَجَّ صبراً في الإماء خضاب
صريع مُسدام والنداء يلوونه وفي الشدق في سائل ولعاب^(٢)

وهذه صورة لصحراء عبراء يضلُّ فيها - لبثت امتدادها - انقطا فلا يدري
من أن الطريق ؟ ويُقلِّب المرء فيها بصره فبرند إليه دون أن يقف منها على نهاية ،
ويلمح في المنظر سراب كثيف اتخذ هيئة سحب متراكم على قواعده ، يقول أبو
الأسود الدؤلي :

وصحراء سخّنت بحارها القطا ويرتد فيها الطرف أو يتصيب
قطعت إذا كان السراب كأنه سحب على أعجازه متصيب^(٣)

وهذه لوحة طريفة لمرؤة بن أذينة رسم فيها صورة ظباء مُطَهَّلات تسوق
غيزلتها ، وتبدو الظباء - في صورته - بيض الظهور بلورات الجمال ، زعي روضة
تصيرة ، وتنعم بظلالها الوارفة :

وعواطف الأرام تزجي خذلاً فيه سواصكن بالرُّبا أطفالها
من كل واضحة السراة فريدة في روضة أنف تمنح ظلالها^(٤)
وإذا دققنا النظر في هذه اللوحات الفنية في شعر الفقهاء وجدنا منها لقطات

(١) ديوان الماني ٣١٤/١ ، (٢) ديوان الماني ٣١٤/١ ، ومع السراب من فيه :
رعى به ، وبلونه : يغاريونه أي على مقربة منه ودنو . (٣) ديوانه ١١٥ ، والسخت :
التديد ، والسختيت : الفبار ، والقصب : القطع ، ومتصيب : قائم .

(٤) شعر عروة ص ١٥٥ ، والأرام : الظباء البيض ، وزجي : تسوق ، وخذلاً : متخالفين ،
وسراة كل شيء : أعلاه ، وأنف : لم يرمعها أحد .

خاطفة في بعض الاحيان، و « سوراً متكاملة » أحياناً أخرى . وأريد بالقطعات ما يمرضونه في أشعارهم من صور جزئية أو أوضاع عابرة ، فأبو الأسود الدؤلي يعرض خطفة بأربعة لأي عميد وهو يتعالم ، ويخلج حاجبيه ، ابتظاها بأنه ذو مصارف قيّمة :

لمرث ما وجدتُ أبا عمير صدوقاً في الحديث ولا علياً
 يكلّمني ويخلجُ حاجبيته لأحسبَ عنده عالماً قديماً^(١)
 ويرسم صورة أخرى ليرث كان أودعه صدر مني له ، فإذا به يشبه بين
 الناس ، ويفدو السرّ كنارٍ تلهبُ في قمة عالية فلبست بخافية على أحد :
 أمِنْتُ أُمراً في السرِّ لم يك حازماً ولكنه في النصح غير مُصْرِبِ
 أذاعَ به في الناس حتى كأنه بعلباء ناراً أوقدتْ بثقوب^(٢)
 ونحن افقن في إخراج المواقف الخاطفة مروءة بن أذينة ، ومن مشاهدته الآتية
 لوحة حَيَّة لطريدة قد سقطت فأخذها من الصياد هول شديد :
 وغبرتُ بدمعٍ - ولست بخالدٍ - مثلَ الوقيعة تحذرُ النجاشا^(٣)
 غاله بمد فناء عشيرته^(٤) مثل حال هذه الطريدة المصابة .
 ويقدم مروءة لوحةً أخرى تصوّره وهو ينحني للخطب الذي زل به ويخضع له :
 ولقد عرفت ، وإن حزنتُ عليهم
 أن سوف أخفيض للحوادث جاشا^(٥)
 ومن أقطاعات عروءة البارعة أيضاً منظر إبل قوية شنتها البعاد فجعات نحن
 بعضها إلى بعض :

١ (ديوانه ١٣٢ . ٢) تهذيب ابن عساكر ٧/٤١٥ .
 ٣ (شعر عروءة ١٨٠ ، والوقية : الطريدة الواقعة ، والنجاش : الصائد .
 ٤ (انظر شعر عروءة ١٧٩ . ٥) شعر عروءة ١٨١ ، والنجاش : قيس الانسان .

وتفرّقوا بعد الجميع لنيّة لا بد أن تفرّق الجيران
 لا تصبر إلا بل الجلاله تفرقت حتى نحن ، ويصبر الإنسان^(١)

وإلى جانب الأقطاعات الخاطفة نجد لوحات متكاملة من عدة صور تدور حول محور واحد ، أو تتأزر مما وتتواكب لتخرج « صورة مركبة » ، أو تنساب في حكاية شعرية تتوارد فيها المناظر تترى إلى أن تم الحكاية .

ومن الصور الدائرة حول محور واحد لوحة للنهان بن بشر يستعرض فيها فتور الود بينه وبين أم عبدالله ، فإذا الود يبكي ويهترى ، والمبتعض الماكر يبيك غطط انفسالها حياكة ، فيسدي فيه ثم يلتمح ، ويرسم صورة قوم يبنون بيوتهم على أساس مهتره من القرية والموان ، ولا يبالون ، فيأف أن يصنع صنيعهم :

أرى أم عبدالله أخلق ودّها فما ترعوي للوصل إلا توها
 فلا تجعلي وصلي إلى قول كاشح إذا هو أسدي تيرة الصرم الحما
 فلست كمن يبني على الهون يته إذا سم يوماً خطّة الضم خيما^(٢)

ولعل من الواضح أن كل صور النهان هذه تدور حول فتور الود بينه وبين أم عبدالله ، فقد ابتدأت هي بالفتور المذكور ، فأوصاها ألا تركزن إلى أقوال الكاشحين ، وألا تندي ما فطير عليه من خلّق بأي الذلة ، وكل ذلك مسالجة للموقف خشية أن ينهار .

ولمروءة بن أذينة مشهد متآلف أيضاً يمرض فيه عدّة صور من مفاخر قومه فما هم أولاء في الحرب جرة متفدة ، وفي غير الحرب أسوة متبعمون اتباع الميرزم نظم الجوزاء و « عرائين » مضر وطلبتها المقدّمون :

وإنا في الوغى ذور نقيم وجره يثنى تضرّمها

١ (شعر عروءة ٤٠٣ . ٢) شعر النهان من ١٢١ - ١٢٢ وأخلق : بلي وفتر ، وترعوي : تكف ، والكاشح : من يضر العداوة .

يَقِيمُنَا النَّاسُ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَتَّبِعُ نَظْمَ الْجُوزَاءِ مِرْزَمُهَا
نَحْنُ الْمَرَانِينَ مِنْ ذُرَى مُضَرٍّ أَغْزَرُهَا نَائِلًا وَأَحْلَمُهَا (١)

ومن الصور المركبة التي يتأزر لإخراجها عدة مشاهد منظر شاعر يحاط في كلامه أثناناً مثلما يجمع الأعشى - وهو يحنط ليلاً - الطيب والحيث مساً ، ولكن أبا الأسود يرميه بقصيدة بالغة لا يحول دون غايتها أي من واق ، فتمزق كل ما كان قاله خصمه ، فيبدد مثلما تبدد الكواكب وتنب إذا تألقت الشمس : وشاعر سوه يهضيب القول ظالم كما اقمم أعشى مظلم الليل حاطب عرضت له بمد الأناة فرعته بخدباء قد ترقض عنها المجاب فضضت بها ما كان جمع قبلها

كما انضض عن شمس النهار الكواكب (٢)

وهذه لوحة يبدو فيها مالك سفي الدؤلي وقد فترت شحنته ، فكلم رآه امتنع لوئه ، وحوّل عنه بصره متظاهراً أنه ينفي إغضاء هادة ، إلا أن أبا الأسود يدرك أن ما يدفعه إلى إغضائه إن هو إلا اهتراء الود بينها ، فيتشبث من جانبه بالشحبة القديمة لعله ينجبها ، ويمير جبال الأخوة من جديد كي تشتد وتقوى ، غير أنه كلما أحكم شيئاً وجد صديقه ينقضه أنكأ ، وعندئذ يذكره أبو الأسود أنه لا يستطيع أن يتقلب قلب غول الليل ، فتهجه واضح ، وسياسته بيثة :

مَنْ مَبْلِغٌ عَنِّي خَلِيلِي مَالِكًا رَسُولًا إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ مِنَ الْأَرْضِ
فَالِكٌ مَسْهُومًا إِذَا مَا لَقِينِي

تَقَطِّعْ عَنِّي طَرَفَ عَيْنَيْكَ كَالْمُضِيِّ

(١) شعر عروة ٨٧ - ٨٨ ، ونظم الجوزاء : كواكبها ، والجوزاء من بروج السماء ، والمرزم : نجم ، والمرانين : السادة ، وعمرتين كل شيء أوله .
(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي ١٨١ ، ويهضب : يحنط ، واقم : كس ، والأعشى : الذي يصر بالنهار دون الليل ، وخبب : ضرب أو قطع اللحم دون العظم ، والمجرب : الترس .

وما لي إذا ما أخلق الود بيننا

أمر القوي منه وتمثل في النض

ألم تر أني لا ألون سيمتي تلون غول الليل بالبلد المنضي (١)

ولأن أذينة لوحة توح بالاعمال الحربية الفذة ، فيها م أولاء بقدمون لأعدائهم طمام الحرب : أسنة نافذة وسيوما ينقطع لحوها نسل الطصوم ... ثم ينفك الاشتباك ويود فرسان القوم وقد تكثرت رماحهم ، بعدما أطمعوا أسنبا الأعداء ، واتلقت سيوفهم ، من شدة ما أبوه ، أما أرض المركة فقد بقيت تنوافد إليها الجوارح وتشتخم منها الصباج :

وقرناهم أسنبا وسيوفاً تقتل الحرمة

فرجعنا بالقتنا قصداً وسيوف الهند منثمة

وعتاق الطير حاكفة وضباع الجزع منخمة (٢)

ولعل من الملاحظ في هذه الأبيات توالي مشاهدتها وتلاحق أخبارها ، وبذلك تشبه الصور المركبة الكثيرة التي تنساب في هيئة حكاية متتابعة ، ومن هذه الصور الأخيرة لوحة أو فل مسرحية ، نعرض شخص رجل احثك عليه ظلام الليل ، ثم رأى نار عروة التي أوقدها كي يهتدي بها الضيفان ، فقصدها إليها ، لقد كان يمانى من عثرات الطريق ووهورته ، ويرد الليل وقصوته حتى قبيل السحر عند ما لمح النار ، ولما بلغ منزل عروة استبج عليه ، وقبل ان يسمع نباحه يشبه الشاعر أننا قصد كراماً لانهر كلابهم لا اعتادت عليه من كثرة الضيفان ، ثم احسن استقباله ، وقدم له قراه :

هذا وطارق ليل جاء ممتسفاً يشو إلى منزلي لما رأى ناري

(١) المصدر السابق ٢٤٥ ، والسبوم : التنير النون ، وأمر : أقل وأحكم .
(٢) شعر عروة ١٠٠ ، وما يهدأ : والقرى : طمام الأضراف ، والحرمة : شهوة الضراب ، والقتنا : الرماح ، وفسداً : منكسة ، والجزع : منطف الوادي .

يَسْرِي وَتَخْفِضُهُ أَرْضٌ وَتَرْفَعُهُ فِي قَارِسٍ مِنْ شَفِيفِ الْبَرْدِ صَرَّارٌ
حَتَّى أَتَى حِينَ ضَمَّ اللَّيْلُ جَوْشَنَهُ

وَقَلْتُ هَلْ هُوَ مُنْجَابٌ بِإِسْحَارٍ
فَاسْتَبِيعَ الْكَلْبَ مِنْحَازًا فَقَلْتُ لَهُ حَيُّ كِرَامٌ وَكَلْبٌ غَيْرُ هَرَّارٍ
أَهْلًا بِمَشْرَاكٍ أَقْبِلْ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ

لَا يُذْهِبُ النَّوْمُ حَقَّ الطَّارِقِ السَّارِي (١)

ومن أبدع الحكايات المصورة مشهد للقاسم بن إبراهيم الرشيبي تدو فيه عادة
تلومه بينا الليل ينشئ الكون وييسط هيمنته ، فيستعملها القاسم ويطلقها بالفرج
القريب ، ثم يماثها هو كيف ترضى له أن يرتع في الماضي ويبقى في أرض الآثام ؟
ويخبرها أنه إذا ضاقت عليه أرض كان له في غيرها فسحة وكفاية ، وهو لا يبالي
إذا قصدهما بالأخطار التي اعتادت أن تحيق به ثم تنفرج :

وعاذلة تصابني وجنح الليل يمتلج
فقلت رويداً ممتبة لكل مهممة فرج
أسرك أن أكون ربعت حيث الإنم والخرج
ذريي خلف قاضية تضائق بي وتفرج
إذا أكدى جنى وطن فلي في الأرض منسرج (٢)

وإذا عدنا ننم النظر في الصور الشعرية السابقة وجدنا منها ما يمتد التجسيم،
ومنها ما يؤثر التشخيص ، ومنها ما يقوم على الإيماء المصور .

(١) المصدر السابق ٢٠٢ . ويشو : يستدل بصر ضيف ، والشيف : لدغ البعير ،
والجوشن : الصدر ، ومنجاب : ماش ومنقطع ، ومحتشم : خجل .
(٢) معجم الشعراء ٢١٧ ، وأكدى جنى وطن : قل خيره ، ومنسرج : منقطع .

فمن التجسيم صور تعرض للماني مرضاً حسباً ، فيتملاها القارئ بعد أن
كان يتخيلها تخيلاً ، فأصلاح ذات البين هو شغب الصدع ، والفرقة انشقاق
للوثام والوفاق ، بقول النعمان :

فتطلب شغب الصدع بعد انشقاقه

فتميا به فالآن والأمر سالم (١)

واللؤم يحمل في بطن الأثى ، ثم يوضع كالقلادة في عنق حملها عندما ينمو
في المهد ، بقول عروة بن أذينة :

لنم ربا واللؤم في بطن أمه وقليده في المهد قبيل السائم (٢)
وكأنما اللؤم توأم للحمل يصحبه منذ نشأته الأول ، ثم يشده إلى عنقه في
المهد ليسبق المود والرفق في اقتناصه :

والتماطف مع الأعداء هو «مبيل» إليهم ، كتمثيل العمود المشتبب ،
وسدود عروة عثمان مالت إلى خصومه يشبه ثوب القليل الميت ، والأيام التي تأتي
على ذلك القليل وتطاول ، تطاولاً :

ولما بدا لي منك مبيل مع المدى

سواي ولم يحدث سواك بديل

صدت كما صد الرمي تطاولت

به مدة الأيام وهو قتييل (٣)

ومن التجسيم أن يُعبّر عن الحالات النفسية بصورة حسية تزيدها جلاء
واتساحاً ، فعالة الغفلة عند ابن المبارك كركوب الأهواء ، وكانت الأهواء مطايا
تحمل الأثقال ، وهي ضحك ما إن ينقلب فيه على ظهره حتى ينطوي على بطنه :

(١) شعر النعمان ١٥٣ ، والصدع : الشق ، وشبهه : جمه . (٢) شعر مروة ٢٥٦ ، وربذة نأ .
(٣) شعر عروة ٣٤٦ ، والرمي : الصيد الذي رمي .

وكيف تحب أن تُدعى حكيماً وأنت لكل ما تهوى رَكوبٌ
 ونضحك دائماً ظهراً لبطن وتذكر ما عَمِلْتَ ولا تَتُوبُ؟^(١)
 ولذكر الله في الأجسام آثار ظاهرة وأماز لا تخفى، وليس في هذا أي
 فريسة، فالجلد في الحجر القاسي له أثره، وسابق يلوم نفسه ألا يرى في جسده
 تلك الآثار والأماز لذكر الله:

حتى متى أنا في الدنيا أخو كلف

في الخلد مني إلى لذاتها صَمْرٌ ؟

ولا أرى أثراً للذكر في جسدي

والحَبْلُ في الحجر القاسي له أَثَرٌ^(٢)

وبصور ابن أذينة نجدة قبيلته فيذكر كيف يكشفون النملة، وكأفها هي
 عطاء، وبشبههم في ذلك بالبدر النير يكشف حلكة الليل الدامس، وكان ظلمته
 حجاب:

نكشف النُما إذا نزلتُ كشفَ بدرٍ ليلةَ الظلمة^(٣)

وبصور فساد أعدائه فإذا هم يهجرون التقي، ويحفظون عن النواقص بحثاً
 حتى يتنوا إليها:

لهم مجلس يهجرون التقي ويتجنون القبيح استنجاباً^(٤)

فالقبيح مجثم مدفون، وهم يتقبون عنه تنقياً حتى يلبثوه.
 ومن الحالات التي جسدها شعر الفقهاء أن يتليج المناظر دون أن يستجيب
 للحق، فاللجوج يريد أن يقود الحق قيادة، فيجمل زمانه الباطل، فيأبى أن يدعق

(١) تاريخ ابن عساكر (مهد) ج ٦، ع ٦٤٤، عبدالله بن المبارك.

(٢) شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٣٤٤، وصغر: ميل.

(٣) شعر عمرو ١٠٧. (٤) شعر عمرو ٢٩٨، ويتجنون: يحفرون.

له ولو انقلب الشأن فجعل الحق هو الزمام لانقادت به الجبال، ولكل أمر باب
 من قصده انتهى إليه، ومن ابتغى من سبيل أخرى ضل من دونه، يقول
 الإمام الشافعي:

متى ما تَقُدُّ بالباطل الحق يَأْتِيهِ وإن قُدَّتْ بالحق الرواسي تَنقُصِدِ

إذا ما أبيت الأمر من غير باب ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد^(١)

وإضافة إلى تجسيم المعاني والحالات زوى في شعر الفقهاء وصفاً حسيماً بحثاً
 لأشياء غير حسية، فلقوم تغلب «بيتين» واضح، قال النعمان:

أبلغ قبائل تغلب ابنة وائل من بالفرات وجانب التمرار

فالقوم بين أوف تغلب بيتين كالرقم فوق ذراع كل حمار^(٢)

والود نازح بييد، يقول ابن عتبة:

إذا هي حلت وسط عود ابن غالب

فذلك وُدٌ نازح لا أطالمة^(٣)

وإلى جانب التجسيم في الصور الشعرية نجد التشخيص أي بث خصائص الأحياء
 في غير الأحياء كالمعاني المجردة والحالات المختلفة والمجاذبات الساكنة.

ومن المعاني التي استعرضها ابن أذينة على هذه الشاكلة المودعة، فهي كأي شيء
 تتنازل وتضرم، ورضى الأعداء يستقبل القادمين إليه، فهو يؤني إليه:

أنتى وكيف لها بذلك بعدما خال المودعة عندها ما ظاهها

وأنت رضى أعدائها بصديقها عمداً لتقطع ودّها ودلالها^(٤)

ويريد مرادة أن ينفي عن نفسه الضمف، فيطلق إياه أن يخضع لخضوع الناقة

(١) تاريخ ابن عساكر (مهد) ٢/١٠.

(٢) شعر النعمان ١٤٩، والترار: نهر بالتراق، والرقم: الختم.

(٣) الأغانى (الثقة) ١٤٣/٩، وزح: جدد. (٤) شعر عمرو ١٤٩.

الظهور التي عصبوا عينها، وجلوا بثورها فندرت:

لَسْتُ الظُّوْرُ التي تمطي إذا عَصِبَتْ

بعد الإباء على مَسْحٍ وإِنْسَانٍ

إني كذلك أبتاه لما كَرِهَتْ

نفسُ المُشَاحِنِ شَكْمٌ عند إشْكَاسٍ (١)

وإذا انتقلنا إلى الحالات التي بثوا فيها خصائص الأحياء وجدة منها الحرب،
فها هي ذي ثعلب، وتمترى حتى آخر قطرة، بقول مروة بن أذينة:

مُ يَحْلِبُونَ الحَرْبَ أَخْلَافَ دَرَاهِمَا وَيَمْرُونَهَا حَتَّى يَنْبِيضَ حِلَابُهَا (٢)

وبصور الحرب مرة أخرى فإذا بالحادقات تفرح القوم وتدق أبوابهم، وكأنها
هي صر يدقون بأيديهم الأبواب، ويستجيب لها أبناء ولاتهم، فيحملون أقال
الهدايا، ويكتفون النُثْمَةَ كَشَفَ النُجُومَ لِأَسْدَافِ السَّلَامِ، وينهر التيء بهذه
الأحياء نهوضاً:

إذا قرعتنا الحادئات سَمَا لَنَا بنو الحرب والكافون ثقل المَنَارِمِ

نجوم أضاءتُ في البلاد بأهلها وقام بها في الحقِّ في المَقَاسِمِ (٣)

والنبايا في شعر سابق تنادر مفادرة الأحياء (٤):

ورُبُّ أَسِيدِ سَائِي الطَّرْفِ مُعْتَصِبٍ

بالتاج نيرانه للحرب تَسْتَمِرُّ

- (١) شعر مروة (٢٣٥)، والظُّوْرُ: النافقة تطف على ولد غيرها، والابلاس: التلطف
بالنافقة عند الحلب، والمشاحن: اللبث.
(٢) شعر مروة ٢٨٣، والحلف: حلة الضرع،
ويرونها: يسحون ضرعها لند، وينبض: ينضب.
(٣) شعر مروة ٢٣٨.
(٤) شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٣٤٢.

يَطَّلُ مفترش الديباج مُحْتَجِبًا عليه تبنى قبابُ الملك والحُجْرُ

قد غادرته المنايا وهو مُسْتَلَبٌ

مُجَنَّدَلٌ تَرِبُ الخَدَّيْنِ مُنْعَفِرٌ (١)

وبصور الدولي حالة الهرم، فاذا بالشباب يموت، والجهل يفر، وإذا به يتشري
بفتوته شيئاً فلا تزيح منه المُنْتَفَةُ، ولا ترد إليه بضاعته:

بان الشباب كَبِينِ المَالِكِ المُوَدِّي وَهَرْدُ الجُهْلِ مَنِي أَيِّ تَعْرِيدِ

بِعْتُ الشَّابَّ بِشَيْبِ بِيعةٍ غَبْنًا يَالِكَ يِعَا حَرَامًا غَيْرَ مَرْدُودِ (٢)

ومن الجمادات التي انبت فيها خصائص الأحياء ديار الأحياسة، فهي تتحدث
وزد النعجة، أو برجي لها فكك، يقول مروة:

ولقد وقفت على الديار لعلمها بجواب رَجْعِ نَحِيمةٍ تَشْكُمُ (٣)

والكواكب يقترن بعضها ببعض، وهذا مأمور شرعي بمقد قيران سبيل والثريا،
يقول النعمان:

أيها المُشْكِحُ الثَرِيًّا سَهِيلاً عمرك الله كيف يلتقيان ؟

هي شامية إذا ما استقلتُ وسهيل إذا استقلَّ عَانِ (٤)

وكا رأينا في شعر الفقهاء صوراً تضمد على العجيم وأخرى على التشخيص
كان ثمة مجموعة ثالثة تقوم على الإيهام الزامن المُلْتَمَعِ المَصُورِ وما يمكنه في الخيال
من أشمة وامتداد.

فهذا «رجل» متفحشٌ يكثر الاستهزاء ب«بن» بمر به، (٥) بصوره الدولي

- (١) ديوانه ١٩٦، واللودي: المالك، وعمرد: فره وغبنا: مخدوعاً خاسراً.
(٢) تاريخ الإسلام ١٠٩/٥. (٣) شعر النعمان ١٢٩، ونسب البيتان أيضاً إلى
ابن أبي ربيعة، انظر شرح ديوان مر لحد يحيى الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة من ٥٠٣.
(٤) الأغانى (الثلاثة) ٢٠٧/١٢.
(٥) بصوره الدولي

وهو يأكل لحوم الناس، بل يحمل هذا العلم «أكثر زاده»، وهو يسمى وراء
«هجره وهواه»، ويحك لذلك مكائد بحرس ألا يقف عليها أحد، ويألع وحرصه
فإذا هو «عماس» متفيت عملة، وأبو الأود لا ينغم نفسه منه ولا يجزه على
قلته مثلها، بل يفره بنفس منه، ويترك لحمه لأشباعه التهمين، ذلك أن هذا
الفتاب - وإن أمن في شراسته - إن ينال من الشاعر شيئاً، والودف بقو وبعض
بصم من صفا جنديل راسي، فهل يمكنه أن يجدر منها خدشاً؟

وخبّ لحوم الناس أكثر زاده كثير الخنا صعب المحالة هماس
تركت له لحمي وأبقيت لحمه لمن نابه من حاضر الجن والناس
فكتر قليلاً ثم صمد كأنما بعض بصم من صفا جبل راسي^(١)
ولو تبدل بقوله «لحوم الناس أكثر زاده» (مقتاباً)، و«هماس» (حرباً)
على «سحر مكائده»، وبصورته وهو «بعض بصم من صفا جنديل راسي» (لم ينل
شيئاً)؛ لغابت من الخيال ثلاث صور طريفة لمن يأكل لحوم الناس، والهماس
والذي يعض الصخور الصم اللثام من الجبل الراسي، فلا تمكن منها آسنانه،
ولا تعود بنير التهنثم والانتلام
ويرسم سابق صورة للبخيل، فإذا هو يسأل «الذي لا يسوى قبلاً»
فيندر بمجزه عنه ويقول «لا أحد السبيل إليه»:

ولربما سئل البخيل الشيء لا يسوى قبلاً
فيقول لا أجد السبيل إليه يكره أن يُبلى^(٢)

والخيال يتمور ذلك الذي «لا يسوى قبلاً» ويشمل حجة البخيل
الذي أعياه السبيل دون أن يلتي سائله، ولله، من ثم، «بؤمين دهاء» سابق عليه:
وكذاك لا جعل إلا لله له إلى خير سبيلاً^(٣)

(١) الصدر فقه ٣٠٨/١٤، والحب: الحادج، والمحالة: الحية، ونابه: قام مقامه، والصم:
جمع أصم وهو الحجر الصلت الصمت، والصفا: جمع صفاة وهي الصخرة اللثام.
(٢) تهذيب ابن عساكر ٤٠/٦، وحلية ٣١٨/٥.
(٣)

وكان مر معنا فراق ابن «عشبة لزوج» «عشمة» وندمه عليها، ولا بأس
أن نقرأ آياته في ذلك:

غراب وظببي أعضب القمر ناديا
بصرم وصردان المشي تصيح
لعري لئن شطت بشمة دارها
لقد كدت من وشك الفراق أليح

أروح بهم ثم أغدو بمنله ويحسب أني في الثياب صحيح^(١)
فتدبر بيتيها «غراب» «جرت» عادة الناس أن يتشاهوا منه، وظبي «أعضب»
انحطم قرنه فليس يبتر في النفس إلا التنفص والحرة، «وصردان» كانت تنعّب
عشبة «وتصيح»، وابن عشبة كان يوشك أن يلقى حتمه إذا اقتربت مائة البعاد،
وحقّ الطلاق، فهو كيد حزين القلب بنتابه التناؤم والتنفص والمم والوبيل،
الأمر الذي انعكس في صورة الغراب القاتم، والظبي الأعضب، والصدان الصامحة
بعد انصرام النهار.

وبصور النمان عفاف عشيرته الأقرين فإذا هم «خرس» من الخنا، لا
يستطيعون أن يتخوضوا فيه، وبصور سخام فإذا جفنتهم تفيض فيضاً «إذا طرقت»
جداً، وعانى الناس من شظف البيش وضنكه ما طفا، هنالك ترى معنى يرم
بفصدون إليهم، ويتركون - لتردادهم المستمر - آثاراً طرقتاً:

مواهيب الممنوع خرس عن الخنا
متاربع للشيزي إذا طرقت جداً

(١) الاغانى (الثقافة) ١٤/٩، والأعضب: الكدور، والصدان: طائر أبيض، وأليح:
أصبر، ويريد الموت.

فقد جعل الباغون فضل نوالهم

لأبياتهم من حولهم طرُقاً لحباً^(١)

ويشيد ابن المبارك بعم أبي حنيفة ، فهو « بحر غزير ، يحمل المشكلات التي

« يتدافها رجال العلم ، فلا تستصي عليه :

رأيت أبا حنيفة حين يؤتى ويطلب علمه بحرأ غزيراً

إذا ما المشكلات تدافمتها رجال العلم كان بها بصيراً^(٢)

والذي يجعل أن يسأل ويفقهه « يرجع بحقي حنين ، ولو حزم أمره

وسأل وجد الشيخ « يلقيه بالراحتين ، « والتجبال يتمشى الصورتين ، صورة من

يلتمس العلم فيجعل ويؤوه بحقي حنين ، وصورة استقبال الشيخ لمتله ، وإن

نشئت ، بالراحتين . يقول ابن المبارك :

إن تلبست عن سؤالك عبد الله ترجع غداً بحقي حنين

فاعنت الشيخ بالسؤال تجده سلساً يلتقيك بالراحتين^(٣)

ومن الصور الإيجابية الرامية إلى فناء الدنيا ، تقطع جبالها ، يقول سابق :

مالي أرى الناس والدنيا مواتية وكل حبيل عليها سوف يبتير

لا يشعرون بما في دينهم تقصوا

جهلاً وإن نقصت دنياهم شعروا؟^(٤)

وأنقل الآن في دراسة الصورة الفنية إلى عناصرها ، ولعلنا لاحظنا من

خلال الشواهد السابقة أنها مختلفة بصرية وذوقية وأسلوبية وسمعية وصحفية وتتألف من

١ (شعر النيمان ٨١ ، والحنا : الفتح ، وأنزع : ملاء ، والعزيزي : حطب أسود يتخذ منه

صاع ، ولجبا : واضحة . ٢ (عبدالله بن المبارك الدكتور عبدالمجيد المنجب ١٠٨ .

٣ (للمدر السابق ١٧٧ ، وتلبست : من اللبس وهو الخلط الأمر .

٤ (شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٣١٤ .

غير عنصر واحد ، وأضرب مثلاً للصورة البصرية ابتداءً بحال الدنيا ، في الشاهد الأخير ، وللصورة الصوتية هجاء الدؤلي « لآكل لحوم البشر غيبة » ، وللصورة اللغوية الطؤور التي « يمتسخ ضرعها لثدرا في شمر عروة ، وأسوق للصورة السمعية بنام الناقة وترثم راكبها في قول النيمان :

فَسَلَّ لِبَانَاتِ الْهَوَى بِجَلَالَةٍ جَمَالِيَّةٍ تَكْسُو الْكِلَالَ تَبِيحًا

إِذَا اندفمت تمشي المنصّة بالفتى وبالرحل طابت نفسه فترثها^(١)

وللصورة السمعية قول عروة :

لا أجعل الجار الملول وذا الشيمة لا يستقيم منسبها

كجريدة البؤ لا تزال بها مفرورة أمه تُشمبها

يمرفها أنفها وتُشكرها بالعين منها فكيف ترأفها؟^(٢)

ومن الواضح في هذه الصورة اشتراك البصر - مع الشم - فيها ، إذ تنكر

الناقة بالعين منها جريدة البؤ ، وكثيراً ما تلقانا عدة عناصر متآزرة لإخراج

الصورة ، فالدؤلي يمرض صورة بصرية شمية في قوله :

أبو بحرٍ آمنُ الناس طرماً علينا بمدحي أبي المُفيرة

كأننا إذ آيناه نزلنا بجانب روضة ربنا مطيرة^(٣)

فبينما تتمتع العين بالروضة المطيرة ، يشم المرء غيرها المبق وأريجها الفواح .

ودائماً يشف من ثنابا الصور مشاعر هي - في أغلب الأحيان - منطلقها

الذي تنزع منه ، وتضمه ، فما كان النمراد - وهم يضطربون انفساً - ليجملوا

١ (شعر النيمان ١٤٣ ، وليانك : حجاب ، والجلالة : النامة الضخمة ، ومثلها الجمالية ،

والكيل : الاعياء ، وبها : صوتها ، والنصة : السير الشديد .

٢ (شعر عروة من ٨٣ ، والبيرو : جلد الحوار يمتشى ثماماً تقطف عليه النافه إذا مات ولدها ،

ترأفها : تحبها . ٣ (ديوانه من ٢١٤ و ٢١٥ .

« الصور ، غائبهم ومدام ، وما هو - في واقعه - إلا رجوع لأصدقاء نفوسهم
 و« تجسيم ، لا بدت في حناياهم من أحاسيس ومشاعر .
 ولا بأس أن أسوق - إلى ما تقدم من أمثلة - أمثلة أخرى ، فالدولي
 يستشر الكتابة ويجمع طيراً ساجماً فيقول :

وساجع في فروع الأيئك هيّجني لم أدري لم نأح مماني ولم سجعاً
 أباكياً إنفة من يمد فرقتيه أم جازعاً للنوتى من قبل أن يقما
 يدعر حمامته والطيير هاجمة فما هجعت له ليلى وما هجما
 شكا النوى فبكى خوف الأسي فرمى

بين الجوانح من أوجاعه وجعاً^(١)
 والصورة كحال الدولي كناية دامنة ، فالطيير بنوح ويجزع ليمد ويتأرق
 ويشكو ويحاج وبأسى ويتألم ... وهو إننا بنوح مما أصاب أبا الأسود ، وأبو الأسود
 يهجر الرقاد من أجله ، والشاعر كلثما تشف عما كان يعانيه الشاعر .
 ويصور ابن عتبة حبه لمتئمة امرأته فيقول :

تفعلن حب عمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير
 تفعلن حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
 أكاد إذا ذكرت المسد منها أطيرو لو أن إنساناً يطير
 غني النفس أن أزداد حباً واكمي إلى صيلة فقير^(٢)

فحبها يستقر ! سواد قلبه ويشمكئن ، وذكرهما - إذا دبت في أوصاله -
 هزبه وأرعشقه حتى ليطن أنه - يطير - والصورة كلها ترف بمشاعر الود الصادق

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للتبري ٢/٢١٨ ، والنوى : البعد .

(٢) الأغاني (القناة) ١٤٧/٩ ، ونقل : دخل .

والحب الأسيل .

.....

وإذن في شعر الفقهاء صور بارعة كثيرة ، منها أقطاب سريفة ، ومنها مشاهد
 متكاملة ، وتقوم هذه الصور على التجسيم ، والتشخيص ، والإيحاء الملح الراسخ ،
 وتختلف عناصرها فهي بصرية وذوقية ولغوية وشمية وحنفية ومنها لغة من غير عنصر
 واحد ، ودائماً تشهد إلى الشاعر والحالات النفسية بأواصر محكمة متينة .
 ٣ - خصائص موسيقية :

إلى جانب الأسطيس الماطية والصور الغنية في شعر الفقهاء تلفتنا خصائص
 موسيقية ، وهي خصائص جعلت المنبج يرتعون بطائفة منه ، كالأبيات البائية لمريح
 ابن الحارث في امرأته ، فهي « بما ينشئ فيه من الأسماء »^(١) . و« مر » بشا كذلك
 سوار ابن عائشة لمروة بن أذينة أن يؤلف له أبياتاً ينفي فيها . ولا عروء أشده
 أبياته التي أولها :

سليبي أجمت بيننا فإن تقولها أينما؟^(٢)

ومن يمد إلى الأبيات يجد ابن أذينة قد تممدها أن تكون صالحة لتوقيع
 والتغني ، فجعل عدتها لا تزيد على سبعة ، وألفها على بحر حفيف رشيق هو
 مجزوء الوافر .

وكثيراً ما ترى في شعر الفقهاء مقطوعات لا تتجاوز عيداً أبيات مروة ، في
 الوقت الذي تختار فيه البحور المجزوءة ، ونحن نعلموا في مجزوء الوافر ، غير هذا
 الشاعر ، القاسم بن إبراهيم الرشيقي في أبياته :

ونى التهجير والدلج وأقصر في الهوى اللجج

وطاف بمارضي وضح عليه للبلى نهج^(٣)

ومن مجزومات مجزوم المخرج ، وهو لا يستعمل تماماً أبداً ، ومنه قول
 النهمان بن بشير :

(١) الأغاني (الهيئة المصرية) ١٧/٢٢٣ . (٢) نوه ١٨/٣٢٧ . (٣) معجم النهمان ٢١٧

إذا ما أمَّ عبد الله لم تحلُّ بواديه (١)

ومنها مجزوء الرمل، ولابن البارك قصيدة فيه يقول في تضاعيفها :

كم بطن الأرض نأوي من شريف ووزير

وصغير الشأن عبد خامل الذكر حقير (٢)

ولعل مجزوء الكامل أن يكون أكثر هذا الطراز من الفن نصيباً في شعرهم،

والدولي مقطوعة تجري على سياقه، يقول فيها :

أعصيت أمر ذوي الشبي وأطعت أمر ذوي الجلالة

أخطأت حين صرمتي والمرء يمجز لا بحالة

والمبدؤ يُقرع بالمصا والمرء تكفيه المقالة (٣)

وال جانب البحور المجزوءة أزجى الفقهاء فلك أشعارهم على محور خفيفة

كثيرة من مثل المنسرح (٤) والتقارب (٥) والسريع (٦) . . .

وقصر البحر سواء كان لتجزئته أم لثقلته يمكن لشده أن يتحكموا

بوقرة من أنفاسهم، فيصرفوها بتزيين الإنشاد، وتزويق الإلقاء، وإلباس أصواتهم

تصيرات إيجابية توأم معاني الشعر، وتوجاهته ومواقفه، على عكس ما يصنع هؤلاء

المنشدون في البحور الطويلة التي تقطع دون قوافيها أنفاسهم، ويضطرون أن

يقسموا كل بيت أقساماً، وهي أقسام لا تحظى معاني الشعر فيها وتوجاهته ومواقفه أن

يصرفوا لها حقها من أنفاسهم، وإجمادات أصواتهم.

ومع البحور تتواكب القافية بروبيتها (٧) الأخير لتقدم الإيقاع الخنثي للبيت،

(١) شعر النعمان ١٦٢ . (٢) تاريخ ابن عساكر (المهد) ج ٦ (ابن البارك).

(٣) خزائن الأدب ٢٨٦/١ . (٤) انظر السيدة الأول في شعر عمرو ص ٧٥ .

(٥) انظر شعر عمرو، القصيدتين الثامنة ٢١٣ والحادية عشرة ٢٨٨، وشعر النعمان ١٠٥، ١٢٧ .

(٦) شعر النعمان ١١٤ . (٧) القافية في رأي الخليل - هي الساكنة في آخر البيت مع الحرف المتحرك قبل الأول منها. وهي في رأي الأخص آخر كلمة من البيت.

ومن طبائع الإنسان أن يتذكر ما اقترب إليه به الهدى أكثر مما بعد، فإن حسن

وقع الخاتمة في أذنه ازداد لها من البيت تقدراً وعن هفواته تنازلاً، وإن قبح

وقتها انكفاً زين الشعر بآخِر ذكرياته عنه، وتصبح خاتمة البيت - بعد إنشاده -

منطلق السبيل إلى تقدمه.

وأم شروط الخاتمة أن تكون نهاية طيبة للبيت غير مفتوحة عليه، ولا

دخيلة للضرورة، واقرأ هذه الأبيات للنعمان بن بشير نجد خواتمها تساب منها انسياهاً

وتتلام مع حشوها دون أي اقتصار :

يا سَعْدُ لا تُعِدِّ النداءَ فالنا نَسَبُ نَجِيبٌ له سوى الأنصار

نَسَبُ نَجِيبٌ له سوى الأنصار

إِنَّ الذين ثَووا بيدر منكم يوم القليب هم وقود النار (١)

فإذا انضاف إلى انسياب الخاتمة مع الحشو خصائص فنية أخرى ازدادت

حسناً في النفس وبقاء في السمع، ولا بأس أن نقرأ قول الدؤلي:

نمايتي عرسِي على أن أطيمنها لقد كذبتنا نفسها ما تمتت

وظلنت بأني كل ما رضيت به رضيتُ به بإجها كيف ظننت؟ (٢)

فاظن هل ترى في الخاتمة عوجاً أو التواء؟ أو لست تستشعر في تاء

و تمتت ، همس التاء، وفي تاء « ظننت » سكوت الطبع الراحي ؟

ولعل الأمر يزداد تضاعفاً إذا سمعنا أبيات عمرو بن أدينة :

وكل هوى وإن عنى زماناً له من بَمدٍ ميمته تجلتي

كأنني لم أكن من بعد ألفٍ عدلتُ النفس قبل هوى لي

فإن أقصر فقد أجريتُ عَصراً وبلائي الهوى فيمن يئلي (٣)

(١) شعر النعمان ١٤٧، والقليب: البر قبل أن تغوى . (٢) ديوانه ١٦١ .

(٣) عيار الشعر ١٠٩ ورواية البيت الأول فيه « دان عني » والبيته: النشاط، والتبيل: الانكشاف، وبلاه: جرء .

فاللسان يريد أن يلفظ اللام ، فيضبط مخرج الحرف ، فينجس اللسان ، حتى إذا زال الضبط انفجر النهر المهبوس 'مخدداً' رنة عالية ، وهي رنة زداد حدة وذلاقة بإدغام التماثلين في 'تجلي' و 'دياتي' ، وإدغام اللام بنون التنوين في 'هوى' لي ، ، وبالياء التي تمد الحدة فتستعير ، هذا انقطعت عن الأذن ذكرتها بها الوثوسة الباقية فعاودها الميل إلى استماعها من جديد . وهذه الخواص منسوقة وحشواً الأبيات ، وهي تكسبها تأثيراً في النفوس ، وطرباً في الأسماع .

وإذا انتقلنا من الأوزان والقافية إلى الموسيقى الداخلية الأبيات وجدناهم يخبرون ألقاظاً تلك - بحرسها أو انسجامها - طاقات موسيقية مبهرة ، ولا بأس أن نلحظ جرس 'تجميها' في مطلع القصيدة الأولى من شعر مروة :

أعرصةُ الدار أم توهُمها هاجتك أم غلّةُ تجميها^(١)

والجُمجمة تلجج الكلام دون إبانة ، ولهذا اختار ابن أديبة حروفاً تصدُر على نحو غير متسلسل من 'مخارج مخلعة' ، فيما تبيت الناء من أول اللسان وأصول الثبايا العليا تبيت الجيم من وسطه وبما يحاذيه من الحنك الأعلى ، والميم من الشفة ، والهاء من أقصى الخلق ، فسيرتها - كما هو واضح - قلفة مضطربة متلججة ، مثل قلى الجمجمة واضطرابها وتلججها ، إذ تبدأ من أول اللسان ، وتتوالى من وسطه ، ثم من الشفة ، وتمود إلى وسط اللسان ، وتقلب ثانية إلى أوله ثم ترد إلى أقصى الخلق من الجهة الأخرى ، ويزيد من لجاجة هذه الحروف تماكب الحمس في الناء ، فالجهر في الجيم ، فالثنية في الميم ، فتكرار هذين الحرفين ، فالهمس في الهاء ، وبأني حرف المد 'إيقاعاً ختامياً' لذلك الاضطراب فيناسب السكون الذي يقب الجمجمة القلقة .

ومن الكاهات ذات الجرس الموسيقي المبر : 'برقص' في قول مروة أيضاً :

هذا ومهليلكة رقص شمسها كالرجع في رهج الوديقة آلهما

(١) شعر مروة ٧٥ ، والعرصة : الساحة بين الدور ، والقلة : حرارة العاشق ، وجيم الرجل إذا لم يبين كلامه .

عجرا دعوهم يحار بها القطا عصبياً يفرق بمدّها أرسالها^(١)

فلقوله 'برقص' جرس لشيط وهو يبدأ بصوت منساب من الياء المضمومة ، ثم ترتفع النغمة بالراء المهبورة ، وبأني سكون القاف فاصلة موسيقية صاعدة ، ويتابع الرنين عندما تنضح القاف القافية بحدة ، فيتجزق الصمت ، ثم تميل النغمة إلى الانخفاض عند الصاد المهموسة .

ويقول أبو الأسود الدؤلي :

ولكن أنت لا شرس غليظ ولا هشتم تنازعه خوورة^(٢)

فجرس هشتم يؤذن بهدم مسترخ ، وكما يعثر التهم ويتلاحق ؛ كذلك تخرج الهاء من أقصى الخلق ، وتواكبها الشين من وسطه ، والميم عند الشينين ، في تدفق وتتابع ، وكما يحدث التهم وتوشة وقرقة ؛ نجد الهاء 'تتمس' منثرة بالانطدام ، ولا تلبث الشين حتى تسمنا بتفتن واسترخاء أطيح الانهدام التباطيء ، وتلبها الميم فتملن بحدة تمام الهشتم ، بينما يرجع التنوين 'الأغن' صدام . وعلى نحو انسجام 'هشتم' ، بالإضافة إلى جرسها ، تلتظ ألقاظ كثيرة تتمازج بهذا الانسجام التآف ، فمن ذلك 'فصحا' في قول أبي الأسود :

وعندي له إن فار قنوار صدره فصحا جبلي لا يماوده الحاسي^(٣)

فالقاء والهاء حمسيان ، والفاء حدة وذلاقة ، والحاء حفيف وفحيح ، والتنوين عنة ورنين ، وكلها تضرب على أوتار متقاربة ، وينساب منها إيقاع متآلف .

ومن الألقاظ المنسجمة الحروف كلمة 'أبي' ، في قول أبي الأسود أيضاً :

وما كل ذي لب يؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بليب

ولكن إذا ما استجمنا عند صاحب فحق له من طاعة بنصيب^(٤)

(١) شعر مروة ١٦٤ ، والمهليلكة : الصحراء الواسعة ، ولرهج : الفبار ، والديوم : البيدة ، والأرسال : الجمانات . (٢) ديوانه ٢١٥ ، والهشم : الرخو . (٣) الأتاني (ثمانية) ٣٠٨/١٢ ، والقفا : البصل . (٤) المؤلف والمختلف ١٥١ .

فاللام تنطلق من طرف اللسان متجهة إلى « باب الخروج » فتشبهها الباء عند الشفتين ، وتمضيان مضياً سهلاً رهواً ، بينما يعود اللسان ليعزف « بالتون » لحن الوداع الشجي .

وأغلب الظن أننا لاحظنا من خلال الأمثلة المتقدمة أن الألفاظ لم تكن تنفرد في جمالها دون سائر البيت ، وإلا تقوَّض ما تبنيه بأيدي الكلمات السَّحيجة المتناثرة ، وما استبان لها رونق ولا اكتمال ، ذلك أن حال الكلمة من السياق هو ما يسمي دقة وضمها أو تخلخله ، ولعل هذه الأمثلة توضح ذلك :

يقول أبو الأسود الدؤلي :

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضَّرِّ حَتَّى أَلْفَيْتُهُ

وَأَسَلَمَنِي طَوْلُ الْبَلَاءِ إِلَى الصَّبْرِ

ووسَّع صدري للأذى كثرة الأذى

وكان قديماً قد يضيق به صدري^(١)

فالقول يتتابع في انسياب متدفق ، وتساوق متعاقد ، دون أن يموت تدفقها نغوز ولا شذوذ . ويقول هروء بن أدبنة :

إِنَّ الَّتِي زَعَمْتَ فَوَادِكَ مَلَّهَا جُمِلْتَ هَوَاكَ كَمَا جَعَلْتَ هَوَى لَهَا

فَبِكَ الَّتِي زَعَمْتَ بِهَا وَكَلَّا كَمَا يُبْدِي لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةَ كَلَّهَا

وَيَبِيْتُ بَيْنَ جَوَانِحِي حَبَّ لَهَا لَوْ كَانَ تَحْتَ فَرَاتِهَا لِأَقْلَبَهَا^(٢)

وَأَمْرَهَا لَوْ كَانَ جَبَّكَ فَوْقَهَا يَوْمًا وَقَدْ ضَحَّيْتَ إِذْ نَ لَاظَلَّهَا

وَإِذَا وَجَدْتَ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةَ شَقَعَ الْفَوَادِ إِلَى الضَّمِيرِ فَسَلَّهَا

بِيضًا بِأَكْرَاهَا النَّعِيمِ فَصَاغَهَا بِلِبَاقَةٍ فَادْقَبَهَا وَأَجَلَّهَا

(١) ديوانه ٢٢٧ . (٢) أنلها : أحميا وأحميا .

لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّمًا لِي حَاجَةً أَرْجُو مَمَوْتَهَا وَأَخْشَى دَلَّهَا
مَنْعَتْ تَحِيَّتَهَا فَقَلْتُ لِصَاحِبِي : مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَبَهَا
فَدَنَا فَقَالَ : لَمَّهَا مَمْدُورَةٌ مِنْ أَجْلِ رَقَبَتِهَا . فَقَلْتُ : لَمَّهَا^(١)

والأبيات تدفق بمدودها الكثيرة المتوالية ، فترى - منذ مطلعها - الحروف الموائمة الطليقة في « التي » و « فؤادك » و « ملَّها » و « هواك » و « كما » و « لها » و « الذي » و « كلا كما » ... فنتمكن من الإلقاء التناهي الإيحائي ، بينا تتوالى الحركات في نحو « جمَلت » و « فَبِكَ » و « زَعَمْتَ » ... لتسلاخ تلتلج الحب في قلبه ، والأبيات تتناقل بكلماتها أقبالاً دون مرقة ولا حَجْر ولا نغز ولا تبعض .

ومع التدفق يحتوي السياق أحياناً تقسيماً موسيقياً لافتاً ، ومن ذلك قول ابن شبرمة :

الْأَمْرُ يَا عَمْرُو بِالْمَعْرُوفِ مُفْتَرَضٌ

وَالْقَائِمُونَ بِهِ اللَّهُ أَنْصَارُ^(٢)

فيتوالى على كره من « الأمر » و « يا عمرو » فتح فسكون ففتح آخر فسكون فضم ، وتقابل فيها « أم » و « عم » ، وتتشدد الخافعات منها بالراء المضمومة ، وينشئ كل ذلك لحناً يريح - يرتابته - السمع ، ويجوي على هذا النمط : « أَل » ، « أَم » ، « ر » ، « يَا » ، « عَم » ، « ر » .

ومن هذا التقسيم اللافق قول النعمان بن بشير :

وَأَفِيحٌ ذِي سَرَبٍ حَازِمٍ صَرُومٍ وَصُولٍ حَبَالِ الْخُلُقِ

صَكْرِيمِ الْبَلَاءِ ، صَبُورِ اللَّقَا ، صَافِي النَّهَاءِ ، قَلِيلِ الْمَلِيلِ

عَظِيمِ الرَّمَادِ طَوِيلِ الْمِيَا ، وَارِي الزَّنَادِ بَعِيدِ الْقَفْلِ

(١) الاغانى (الحجة المصرية) ٣٣٠ / ١٨ . (٢) أخبار الحضرة ٩١ / ٣ واظر ٩٢ / ٣ .

أَقَمْتُ لَهُ وَلَا شَبَاهَهُ عَمُودَ الشَّرَى بِذَمُولٍ رَمَلٌ^(١)
 وواضح تساوق هذه المقاطع «كريم البلاد، صبور القلاء، صافي الشفاء» ثم
 «عظيم الرقاد، طويل العباد، واري الزناد» فهي تترك في الأذن وقماً رتياً فترتاح
 لتكراره.

ومن التفضيحات الموسيقية أيضاً تكرار بعض الكلمات بصيغتها أو بصيغة مشتقة
 منها على نحو ما قرأ في أبيات الدؤلي:

أَيْهَا الْأَمَلُ مَا لَيْسَ لَهُ رِيعًا غُرٌّ سَفِيهَا أَمَلُهُ
 رَبٌّ مَنْ بَاتَ بِجَنَّتِي نَفْسَهُ حَالٌ مِنْ دُونَ مُنَاهُ أَجَلُهُ
 وَالْفَتَى الْمُحْتَالُ فِيمَا نَابَهُ رِيعًا ضَاقَتْ عَلَيْهِ حَيْلُهُ
 قَلْ لِمَنْ مِثْلُ فِي أَشْعَارِهِ يَهْلِكُ الْمَرْءُ وَيَبْقَى مِثْلُهُ
 نَافِسُ الْمُحْسِنِ فِي إِحْسَانِهِ فَسَيَكْفِيكَ سَنَاءُ عَمَلِهِ^(٢)

وهو ما كان يسمى «رد العجز على الصدر».

ولعل أروع حالات التساوق الابقاعي أنما تتأوج النعمة الموسيقية الأبيات
 مع موضوعها الشعري وجوانبه، وقد مررنا بنا بعض ذلك من قريب في أبيات عروة
 إن أديفة اللامية، وأيضاً فإن عروة يشجى لابتعاد سمداه، ويرسل هذا الغناء الحزين:

صَرَمَتْ سُمَيْدَةً وَدَّهَا وَخِلَالَهَا

مَنَا وَأَعْجَبَهَا الْبِعَادُ فَالَهَا ؟

سَمِعَتْ مِنَ الْوَأَشِيِّ الْبَعِيدِ بَصْرًا مَنَا قَوْلًا فَأَفْسَدَهَا وَغَيَّرَ حَالَهَا

(١) شعر النعمان ١٠٧، وأبيح: واسع الصدر، وذئ سرب: أي يجري في الأور، والخلة:
 السداة، والقفل: المودة، والذمول: الناقة آسير التعيل وهو ضرب من السير ومثله لرمل.
 (٢) العقد الفرید ١٩٠/٣ - ١٩١.

وإذا المودّة لم تكن مصدرقةً ككِرَهُ اللَّيْبُ بِمَقْلَبِهِ اسْتِقْبَالَهَا
 ولقد بلوت وما ترى من لذة في العيش بعدك قريباً ووصالها
 عَصْرَ الشَّبَابِ وَمَا تَجِدُ مَوْدَةً لِلغَايَاتِ وَلَا هَوَىٰ إِلَّا لَهَا
 حتى رأينا للصَّرِيحَةِ آيَةً مثل النهار وعددت أشغالها
 وَخَجَرْتُمْ عِلَلِ الذُّنُوبِ فَأَصْبَحْتَ فَدَ زَايِلَتِكَ وَزَوَدْتِكَ خِيَالَهَا
 وطوت حبالاً من حبالك بعدما وصلت به أخرى الزمان حبالها^(١)

وإذا كان الطريقة الأتشد دور جوهرية في إيضاح التساوق بين نعمة الأبيات
 وجوانبها، فإن موضوعها وما تردده من عبارات الكمد الحزين وصور الأنين
 الشاكي من أفوى نواهي الموسيقى الآسية في الأبيات، وقد يتضح هذا التساوق إذا
 قررنا المقطوعة السابقة لعروة بقوله في قصيدة أخرى:

وَضَيْفٌ خَرَجْتُ إِلَى صَوْتِهِ أَرْحَبُ لِمَ يَرُّ مَنِّي التَّبَانَا
 أَنَاخُ فَمَجَّئْتُ حَقَّ الْقَبْرِى وَكُنْتُ بِهِ لَا أَحَبُّ التَّبَانَا^(٢)

فالبيتان يجريان جرياناً وبمكيان حال الشاعر وهو ينفخ لصيفه ويرحّب به
 دون «التبان» و«بمجدل» له قيراء من غير تأخر ولا «لبان»، وبجمل رويه
 ثم لتوبة لتكون على مقربة من المخرج الأخير، فما هو إلا أن يلفظها حتى تدب
 منه لاستقبال صيفه، بينما سمجت اللام في القصيدة السابقة هنا بعبدة النور فهي
 تُسَلِّمُ رِحْلَتَهَا الطَوِيلَةَ بِأَنْفَامٍ تُشْبِهُ حَتِينَ الْقَصَبِ الْحَزِينِ.

.....

ولا ريب أن هذه الخصائص الموسيقية تنضم إلى «الأحاسيس الماطية» و«الصور
 الشعرية» لتضبط عن قريض الفقهاء نعمة النظم التي حول «التصميم» و«صحة» بها.

(١) شعر حمزة ص ١٣٩، والحلال: السداة، وتجد: تقطع، وآية: علامة، وخجرت:
 اهضت، وزايلتك: فارتكت، والذنوب: الدلو اللأى ماء، والحبال: الفساد.
 (٢) المصدر السابق ٢٩٥، والتبان: تأخر.

فصل الثاني

ظاهرة النظم

رأينا في الفصل السابق نماذج شعرية بارعة من قصائد الفقهاء ، وهي نماذج كانت تدفني دفاً إلى رفض التهمة التي ألحقها « التميم » بهذا الصرب من الفن ، ومن الحق أن قريض العقباء لم يكن كله « إبداعاً فنياً » فقد كان إلى جانبه نظم سوف أقف على أبرز خصائصه ، ولو كان نظر إليه الذين جرحوه « نظرة شاملة » لتمسكوا أن يميزوا « النظم » من « الإبداع الفني » دون أن يحيفوا عليه شيئاً ، ولو كان تذكر هؤلاء النقاد أن الفقهاء - كثيرهم من ضروب البئر - منهم « من » يبرع في القصيد حتى يبلغ القمم الشعرية الشائعة ، ومنهم « من » يهبط دون ذلك درجات قد تصل به إلى حضيض هذا الفن ؛ لا يمتدوا من « التميميم » ابتداءً كبيراً ، ولو لم درسوا أعلام الشعر العالمي - في كل « عصوره » - لأبصروا أن شاعراً لم يخرج ديواناً متكاملًا على قالب واحد ، ولا بد أن يكون له قصائد رائدة وأخرى غير ذلك ، أفليس جديراً إذن ألا ينظروا إلى النظم وحده عندما يصعدون أحكامهم الأدبية على شعر الفقهاء ؟

وإذا أردنا أن نحدد السيرة العامة لظاهرة النظم في شعر العقباء حتى نهاية العصر النبائي الأول وجدناها تطرق هذا الشعر - على استحياء - منذ نشأته الأولى ، ثم أخذت تتموج مع الزمن دون أن يبسط لها سلطان قاهر ، حتى إذا انقضى العصر الأموي طمعت إلى تحقيق رغائبها ، وتم لها - على أيدي طائفة من الشعراء - بعض الذي طمعت ، غير أن القاسم بن إبراهيم الرسي زلزل لها أعلامها في نهاية العصر ، فانكفأت تطويها للمستقبل المجهول ، وسوف يبدو نصيب كل من الشعراء الفقهاء من ظاهرة النظم في الباب الأخير .

١ - النزعة العقلية :

على عادة ما يردده الناس من « أن « الصنعة لا بد » أن تظهر على صاحبها ،

نسرّب إلى شعر الفقهاء طائفة من أحكام الفقه ومصطلحاته وأصوله ، فن الأحكام التي عرض لها الفقهاء في أشعارهم ما قاله الحسن البصري حين سئل عن القبيحة ، وقال السائل :

يا حسن البصري إذا الشبي إني إلى وجهك مشتاق
قل لي وأنت المرء ذو حكمة في كل ما تُفنيه مصداق
هل جائز تقبيل ممشوقة خلانة الأرواح سراق
فكان جوابه :

أقول والرحمن لي شاهد ما أنا بالفحشاء نطّاق
إن كنت في التقبيل ذا إربة مشبهاً للهو و تواق
حُرِّمَتْ في الجنة حُورِيَّةٌ وردية الخدين رقرق
فاستشعر التقوى وكن خاشعاً فإن تقوى الله تزيق ^(١)
ومن تلك الفتاوى ما عرضها ابن شُبْرُمَةَ من حرمة الخمر والعتيلة ^(٢)
ونبيذ الزبيب إذا اشتد :

يا خليلي إنما الخمر ذنبٌ وأوجدة الطلاء المرهبُ
ونبيذ الزبيب ما اشتد منه فهو للخمر والطلاء نسيب
حُرِّمَتْ هذه فلا شك فيها ولهذا معرفة وذُوب ^(٣)

ومن هذه الأحكام ما استمره الإمام الشافعي من أن الطلاق ثلاث مرهات ليس غير ، وقاس عليه شأنه مع صدق له كانت تولى إمرة السيين فقنيت عادته

- ١ (السؤال وجوابه في كتاب عطف الألف المألوف على اللام المطرف الديلمي ص ٥٢ .
- ٢ (الطلاء : صير الذهب إذا طبع حتى ذهب أهل من ثلثه ، وقيل الطلاء ما ذهب ثلثه وقتي نكه ، وقيل ما ذهب نكه (انظر الباب ٨٢/٢ .
- ٣ (اخبار القضاة ٩٨/٣ ، وانظر المقدم الفريد ٣٣٥/٦ .

كما كانت عليه ، فقال فيه :

خذها إليك فإنَّ ودك طالقٌ مني وليس طلاق ذات البين
وإن التويت فإنها تطليقة ويدوم ودك لي على تفتين
وإن امتنمت شفعتها بتالها فتكون تطليقين في حَيْضَتَيْنِ
وإذا التلات أنتك مني طائماً لم تُغن عنك ولاية السبيين^(١)
وكما نبرت هذه الاحكام إلى شعر الفقهاء نرتب إليه أيضاً مصطلحات
فقية كثيرة ، من مثل : الحرام والزكاة والنصاب ، في قول الإمام الشافعي :

فدع عنك سواهات الأمور فإنها حرامٌ على نفس التي ارتكباها
وأدِّ زكاة الجاه واعلم بأنها كمثل زكاة المال تم نصابها^(٢)
ومن ذلك : الشرط الواجب ، في قوله أيضاً :

العلم من شرطه لمن خدمه أن يجعل الناس كلهم خدمة
وواجب صونه عليه كما يصون في الناس عرضة ودمه^(٣)

وعلى هذا النحو بين عباده بن شبرمة بعض الأصول الفقهية التي ينتمى
في قضائه وهي القرآن الكريم والاجتهاد والقياس ، فيقول :

أقضي بما في كتاب الله مجتهداً وبالنظائر أقضي والمقاييس
إذا قضيت بمسألة الحق مجتهداً فلست أجهل أقوال الضماني^(٤)

- (١) مناب البيهقي ٩٦/٢ ، وكتاب التامني للرازي ٢٠١ ، وتاريخ بغداد ٤/١٣٨ ،
والسبب : كورة من سواد الكوفة وهما سببان الأعلى والأسفل .
- (٢) مختصر تذكرة الفرطلي لشرائ ١٦ .
- (٣) طبقات الشافعية للسيدي ١٥٩/١ ، وعديّة الأمم ٣٦ .
- (٤) اخبار القضاة ٩٧/٣ .

ويفصل هذا الموضوع مرة أخرى فاذا به يحكم بكتاب الله وسنة رسوله
ﷺ ، فإن لم يجد نصاً في ذلك المصدرين الأساسيين لفقده طارق باب الاجتهاد
والقياس :

ما في القضاء شفاعاً لمخاصم عند اللبيب ولا الفقيه الحاكم
أهون علي إذا قضيت بسنة أو بالكتاب برغم أنف الراغم
وقضيت فيما لم أجد أثراً به بنظار مرفوضة ومعلم^(١)
وإذا صدقت الأئمة المتقدمة و ظهور السنة على صاحبها ، وشهدت لهؤلاء
الشمراء بالغة ، فقد ضيقت عليهم - من ناحية أخرى - حلبة القول ، وحصرته
في زاوية منها فتقوا فيها فيكرّم وأطلقوا خيالهم فإنهم ملتزمون أن يثبوتوا من
حولها غير بعيد ، وأن يستمرضوا أحكامهم فيها ومصلحتهم بدقة لا تمكن لهم
أن يطلقوا بمواظف مدققة وتصوير طريف وفكر لا يمدّها موضوع دقيق الطبع
متعارف السمات ، على عكس ما كانوا يفضلون في المجالات الأخرى للقول ، عندما
لا يكون الموضوع أحكاماً واصطلاحات ، إذ تنفسح أمامهم الآفاق فيتوصون في
عباب الفكر أو يطربون بعيداً على أجنحة الخيال ، ثم يودون بجبل القول ،
وطريف البيان .

ودائماً يوق انطلاقة الشعر إدخال الملوم الأخرى فيه ، وخصائص تلك
الملوم ، وليس من ريب أن الخيال الذي جرت عادة الشعراء أن يستبحوا في هاله
طويلاً حتى يؤوبوا بالدرر الحسان يحتاج إلى فسحة من الزمن لم يكن يملكها كثير
من الفقهاء ، إذ عكفوا على كنوز العلم وشدّتهم التكاثر منه ، فتنافس على حقولهم
متنافسان : منارف الفقه ، ووساوس الخيال ، وإذا كانت طائفة منهم أوتوا نصيباً
المواهب فاستوعبوا الأمرين جيماً ، فإن آخرين منهم رجحت كفة لديهم الأخرى ،
وغلبت عليها ، بينما كان فريق ثالث أميل إلى أحدهما لفكرته سابقة لديه عن
الشعر^(٢) .

- (١) عيون الأخبار ٦١/١ ، وأخبار القضاة ٩٧/٣ .
- (٢) انظر رأي الشافعي في لزوم الشعر بالعلماء : نور الأصار ٢١٥ ، وتزعة المجلس ٢١١/٢ =

وإلى جانب أحكام الفقه ومصطلحاته تلقانا في طائفة من شعر الفقهاء زعة فكرية مجردة من التواء العاطفي والسبحات الخيالية والابتغاء الواسع، إنما هي نظم مرسل دون أي حلية سوى إصابته لزمان فكرية ثمينة .
ومن الحق أن إصابة الماني التريفية ليس بالأمر اليسير ، فتن أوتي ذلك استوفى به سبباً قوياً من أسباب الجمال ، وهو أن يحترم هذا السبب إذا قدمت به شرائط الشعر الباقية ، غير أنه إذا جمها معاً انطلق شعره إلى قمم الذن الناشئة ، على حين لا يقدر أن يرتقي بمانيه وحدها إلى تلك القمم .
ومن الخطأ أن يهجر الدارسون شعراً - أي شعر - طابت معانيه ونرفت أفكاره ، ومن الخطأ أن يخسوه حفاة الذي نال من الجمال ، وهل يستوي ذلك الشعر وما فقدت أسباب الخير كلها ، فالحط مضموناً ، والحط قالباً وصياغة ، إن النقد المرئي - من قديم - قدّر الماني قدرها فكان كثير من أعلامه لا يفصمون المعنى من الشكل ، ويشترطون للجمال الأمرين معاً (١) ، لكن أصواتاً شردت عن حقيقة المعنى أو بعض حقيقته فجعلت تردد : أن « الذين يمزج عن الشعر » (٢) . فكيف يروق من الشعر معنى هناك عنه أستاذ القدامة ؟ وهل يطيب قول خلع شاعرٍ اختلقه ومضى على غير استحباب ، يهدم خير ما تملكه البشرية ؟ سيئات في الحقيقة لا يلزمان القمم الفنية القدسية ، شعر طابت معانيه وعرفته قواله ، وشعر تألث ميناءه وفسد مضمونه ، غير أن الأول يُسهم في نهوض الأمم ، خيلاف ما يصنعه الآخر ، وهو لذلك يُفضل عليه تفضيلاً كبيراً .

= وقد تقدم في الفخر ، وانظر شعر النعمان ١٠٠ - ١٠١ . وقد مضت الأبيات في اللوح .
(١) يقول الجاحظ : « وقال بعضهم - وهو من أميين ما اجتنبناه ودوناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق ميناء لفظه ونظمه معناه » (البيان والتبيين ١١٥/١ الطبعة الثالثة) بتحقيق عبدالسلام هارون . ويقول ابن طباطبا : « وكم من معنى حسن قد شين بمرمته الذي أبرز فيه ، وكم معرض حسن قد ابتدل على معنى قبيح ألبسه » (عيار الشعر من ٨) . ويقول أبو هلال العسكري : « يحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ . . . لأن المراد بعد على إصابة المعنى . . . ولأن للماني عقل من الكلام محل الأبدان ، والاتفاظ تجري معها مجرى الكسوة ومرتبطة إحداهما على الأخرى مبرورة » (كتاب الصنائع من ٥١ طبعة الآستانة الأولى) .
(٢) الوساطة بين النبي وخصومه من ٦٤ .

وقد مررت بنا عند الحديث عن « الإبداع الفني في شعر الفقهاء » أمثلة واقية من « شعر القمم » وأسوق الآن أمثلة أخرى من شعر الماني المرهدة .
فهذه نصيحة رشيدة يقدمها الدؤلي لابنه :

أحِبُّ إِذَا أُحِيبتَ حَباً مُقَارِباً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعٌ ؟
وَأَبْضُ إِذَا أَبْضتَ غَيْرَ مِبَاعِدٍ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ
وَكُنْ مَعْدِنًا لِلْحلمِ وَأَصْفَحْ عَنِ الْخِصَا

فإِنَّكَ رَأَى مَا حَيثَ وَسَامِعٌ (١)

وهذه حقيقة راسخة بمرضا أبو الأسود أيضاً ، فليس أحد من الناس بضار أحداً إلا بأذن الله :

رَأَيْتَ أَبَاسَهْلٍ وَمَا كُنْتَ مَذْبِياً إِلَيْهِ وَلَا أَنِي خَرَقْتُ لَهُ سِتْرَا
يُرِيدُ فسادَ الرِحمِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَذُونُكَ قَدْ أَبْلَغْتَ فِيمَا أَرَى الْمَذْرَا
فَبَاعِدْ طَوَالَ الدَّهْرِ إِنْ كُنْتَ صَارِمَا

لَتَضُرَّ مَنْ لَا تَسْتَطِيعُ لَهُ ضَرًّا (٢)

وهذه حكمة مستنيرة للإمام الشافعي :

أَرَى رَاحَةَ لِلْحَقِّ عِنْدَ قَضَائِهِ

وَيَثْقُلُ يَوْمًا إِنْ تَرَكْتَهُ عَلَى عَمْدٍ

وَحَسْبُكَ حِظًّا أَنْ تَرَى غَيْرَ كَذِبٍ

وَقَوْلُكَ لَمْ أَعْلَمْ وَذَلِكَ مِنَ الْجَهْدِ

وَمَنْ يَقْضِ حَقَّ الْجَارِ يَمْدَانِ عَمَّهُ وَصَاحِبِهِ الْأَدْنَى عَلَى الْقَرْبِ وَالْبَمْدِ

(١) ديوانه ١٣٨ . (٢) ديوانه من ١٥١ ، وأبو سهل جاز له كان يؤذيه .

يعش سيداً يستعذب الناس ذِكْرَهُ وإن نابَهُ حقُّ أتوهُ على قصد^(١)
وهذه حكمة أخرى له :

إذا لم أجد خلاً تقياً فوحدني ألد وأشهى من غَيْرِ يَ أُطاشِرُهُ
وأجلسُ وحدي للسِّفاهة آناً أقرُّ ليني من جليس أحاذره^(٢)
وهذه قاعدة أساسية في تحصيل العلم للإمام الشافعي أيضاً :

أخي لن تنال العلم إلا بستة سآتيك عنها مخبراً ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان^(٣)

وكل ذلك شواهد على شمر الماني المبرهن ، ولعلنا لاحظنا سواب فيكربها ،
وما نزع إليه من الاجبار والتقرير ، ومن الشرود القريب من الشر .
ولعل من أبرز خصائص هذا الشمر ميله إلى الخطاب المبائر ، وقد مررت
بنا نصيحة المؤدي لابنه ، وهي مما يشجع فيها هذا الميل ، ومن دون آيات
المؤدي شواهد كثيرة ، فن ذلك قول سابق :

إن كنت متخذاً خليلاً فوق وانتقد الخليلاً
من لم يكن لك منصفاً في الود فابغ به بديلاً
وعليك نفسك فأرعها واكسب لها عملاً جميلاً
ومن استخف بنفسه زرعت له قلاً وقيلاً

(١) معجم الادب ١٧/٣١٨ . وقد قال الايات بعد أن أخبر بمرض صاحبه . وفي الشطر الاخير
من البيت الثاني : « وفولك لم أعلم وذاك من الجهد » ترداد لمي طرفه عبدالله بن مسعود من قبل في
قوله : من علم قليل ، ومن لم علم فيقل الله أعلم . فان من العلم أن يقول لا يعلم لا يعلم لا أعلم » (التحريد
الصريح ١٠٩/٢) . (٢) نور الابصار ٢١٤ ، وغرر الحصائن ١٦٢ .
(٣) امرأة الجنان ١٦/٢ ، وهدية الامم ١٣ ، والسب في تعليم العلم من ١٤ . إلى الامام علي بن
أبي طالب .

وأقل ما تجد اللثيم عليك إلا مستطيلاً

والمرء إن عرف الجميل وجدته يأتي الجميلاً^(١)

فهو يعظ وعظاً صريحاً مبائراً ، ويكرر ضمائر الخطاب ، ومن أمثلة الخطاب
البائنة أيضاً قول الامام الشافعي :

زِنٌ مَنْ وَزَنَكَ بما اتزنت - وما وزنك به فزنته
مَنْ جا إليك فرُح إليه - ومن جفاك فصد عنه
مَنْ ظن أنك دونه - فأرك هواه إذن وهيئته
وارجع إلى رب العباد - فكل ما يأتيك منه^(٢)

وجملة هذه الخطبات البائنة وعظ ونصائح ، وكأننا نعلم اهتمام الفقهاء
على إصلاح الناس أكثر من أن ينصب على افتنان منهم باخراج أشعارهم مخترجاً
حسناً ، وبجيشوه البائنة الصريحة ، غير أن من الخير أن تتساءل ما ضيّر هذه
البائنة الصريحة ؟ وعلام يشتد في تقديمها الناقدون ؟ إن غم قبيحاً يتدعها الناس ثم
يكون لها في أنفسهم وزن وهممة ، وذلك بموافق الكثير منهم أن يطلقوا ويحلقوا
ببيدك ، ليصروا - في نظرة شاملة - حقيقة ما هم فيه ، ولو تمكنوا من تلك النظرة
لأروا المهدي من قيمهم والسقيم والذي جعلوا له نصيباً من التقدير أكبر مما ينبغي له .
وقد لا يظلم الباحث المنتدين في نقد الخطب البائنة إذا سلمتهم في الدين
يقيمون لأشياء وزناً أكبر مما ينبغي لها ، وإذا كان الشمر القهقري قدوا - في
بعض أشعارهم - وعظاً صريحاً فما كان يقدمهم إليه سوى إخلاصهم الصادق ورغبتهم
أن يستوي من المجتمع كل حيوج ، والواقع أن كثرة الناس ردموا نصائحهم بالحياب ،
ولا يزالون ، ويملقون طائفة منها في بيوتهم ومحاسنهم^(٣) ، ومن السدالة أن يلتفت
الناقدون إلى ذلك ، ويفيدوا من هذا النقد الشعبي ، المريض .

(١) تهذيب ابن عساكر ٤٠/٦ . (٢) نور الابصار ٢١٤ .

(٣) رأيت آيات الامام الشافعي :

٢ - البساطة :

سوف يزداد انضاح النقد الشعبي عندما نلاحظ البساطة في ظاهرة النظم وهي بساطة تلقى في نفوس الكثرة الغالبة من المجتمع فهماً واستماعة ، ومن طبائع البشر أنهم كثيراً ما يستجيبون لما يفهمون .

وأول مظاهر البساطة سهولة الألفاظ ووضوحها ، وأسوق الآن عدة أمثلة ليس فيها كلمة غامضة ، قال أبو الأسود الدؤلي :

ذَكَرْتُ إِنْ عَبَّاسٍ بِبَابِ إِبْنِ عَاصِرٍ

وَمَا مَرٌّ مِنْ عَيْشِي ذَكَرْتُ وَمَا قَفْضٌ

أَمِيرَانِ كَانَا صَاحِبِي كِلَاهِمَا فَكَلُّ جَزَاهُ اللَّهُ عَنِّي بِمَا عَمِلْتُ
فَإِنْ كَانَ خَيْرًا كَانَ خَيْرًا جَزَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ شَرًّا كَانَ شَرًّا كَمَا فَعَلْتُ^(١)

وقال ابن شبرمة :

إِذَا قُلْتَ جِدًّا فِي الْمَبَادِئِ وَاصْبِرُوا أَصْرًا وَقَالُوا لِلْخُصُومَةِ أَفْضَلُ
خِلَافًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ وَبِدْعَةً وَهُمْ بِسَبِيلِ الْحَقِّ أَعْمَى وَأَجْهَلُ^(٢)

وقال الإمام الشافعي :

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ أُرِحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعِدَاوَاتِ
إِنِّي أَحْبَبْتُ عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيِيهِ لِأَدْفَعِ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ

= « عَفَوْتُ نَفْسِي فِي الْمَحْرَمِ وَتَحَيَّيْتُ مَا لَا يَلِيْقُ بِمُسْلِمٍ »

مكتوبة بخط جيل في « كفاك » في ساحة التحرير بالقاهرة ، كما رأيت آياته :

« إِذَا شِئْتَ أَنْ تَهَيَّا سَلِيماً مِنَ الْأَذَى . . . »

في مواضع متفرقة من القاهرة وحلب . وصمت الناس كثيراً بشدهن قوله : « شكوت الي وكبيع سوه حفطي . . . » وغير ذلك من شعره أو شعر الفقهاء سواه .

(١) خزائن الادب ٢٨٥/١ ، والأغانى ٣٢٢/١٢ وكان ابن عباس يكرمه بينما كان ابن عاصر

- فيما بعد - يخفوه لتشيعة . (٢) أخبار القضاة لوكيع ٩/٣ .

وأحسن البشر للإنسان أبنيضهُ كأنما قد حشا قلبي محبات
ولست أسلم من خلِّ بخالطني فكيف أسلم من أهل المداوات^(١)
وقال أيضاً :

يَا مَنْ يُعَانِقُ دُنْيَا لَا يَبْقَاهَا يُعْمِي وَيَصْبِحُ فِي دُنْيَاهُ مَقَارَا
هَلَا تَرَكْتَ لَدُنِّي الدُّنْيَا مَمَانَةً حَتَّى تَمَانِقَ فِي الْفَرْدُوسِ أَبْكَارَا
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ تَسْكُنْهَا فَيَنْبِضِي لَكَ أَلَا تَأْمَنُ النَّارَا^(٢)

ومع السهولة في الألفاظ نجد البساطة في التراكيب فلا يكاد الباحث يرى في ظاهرة النظم صورة بارعة ولا إبداعاً متناغماً ، ولا قوة تعبيرية متدفقة ، وإنما يجد كلاماً مرسوماً يؤدي معناه بحسب ، وكأنما هو يتحدث في الحياة العامة بلا صنعة ولا تزويق ؛ قال الدؤلي :

لِعَمْرِي لَقَدْ وَصَّيْتُ أَمْسَ بِحَاجَتِي

فَتَى غَيْرَ ذِي قَصْدٍ عَلِيٍّ وَلَا رُؤْفٍ

وَلَا عَارِفًا مَا كَانَ يَدِينِي وَيُنِيهِ

وَمَنْ خَيْرٌ مَا أَوْلَى بِهِ الْمَرْءُ مَا مُصْرَفٍ

وَمَا كَانَ مَا رَجَّيْتُ مِنْهُ فِقَاتِي

بَأَوْلِ خَيْرٍ مِنْ أَخِي ثِقَةَ صُرْفٍ^(٣)

وقال أيضاً :

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ أَبَا مَاعِزٍ مِنْ عَامِلٍ وَصَدِيقٍ

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٨٧/٢ وانظر أدب الدنيا والدين ١٦٧ وروضته الطفلا ١١٧ .

(٢) نور الابصار ٢١٤ - ٢١٥ . (٣) ديوانه ١٥٧ .

قضى حاجتي بالحق ثم أجازها بصدق وبمض القوم غير صدوق
ولما رأني مقبلاً قال : مرحباً ألاً مرحباً واديك غير مضيق
بني لك « عبدُ الله » بيتاً يافع على كل وادٍ حوله وطريق^(١)
وكتب ابن شبرمة إلى الحجاج بن أرطاة :
تأدوا له : هل من خصيم ، ودونه خصوم كثير ، والرياء قبيح^(٢)
وكتب إلى أخ له جفاء :

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا^(٣)
ومن ملاح البساطة في ظاهرة النظم الفِكَر القريبة العامة فيها ، فليس
بمحتاج قارئها أن يتوسل على دقيق معنى ، وليس ببيد ذهنه بمخفي عبارة ، فهذا
النصان يفخر بمجد قومه الذي يزيد خيراً ونبلأ ، وما هوذا يخلص من استقام في
وده ممة ويحذر الحاقه الهادع وزلله :
ومجد تليد قدمته أوائل أبي لي إلا عفة وتكرماً
أود صدقي ما استقام بوده
وأحذر ذا الضمن الخوف الملوّما^(٤)

ويهجو المؤذي رجلاً ، فيصوره كثير الكلام ، غير أن كلامه مخف وهنر ،
وبين أن من شر الرجال الأحمق الفرس :

لنا صاحب لا كليل اللسان فيصمتُ عنا ولا صارمُ
وشر الرجال على أهله وأصحابه الحميق العارم^(٥)

ولعل من أم أسباب البساطة في ظاهرة النظم تأليف طائفة منها ارتجالاً ،

(١) الصدر السابق ١٦٤ . (٢) أخبار القضاة ٩١/٣ . (٣) روضة الفلا ١٨٤ .
(٤) شعر النمان ١٢١ . (٥) ديوانه ١٣٣ والعارم : الفرس المؤذي .

وهو ارتجال لا يبيح الأدهان أن تغليب الفكر وتدهن كل وجوهها ، وتندر
أن يرح شاعر دون أن يجسر فريضه وينقحه ويبدل بشائبه حسناً وناشزه سائراً
متألفاً ، وحقاً يستعمل الشاعر في بعض قصائده فتدفع بها القلائد أو تصاد
بها تأملاته دون كد منه ولا روية ، إلا أن لاسترسال الشعراء دواعي وآفة ،
وليس بممكنة شاعر أن يتعلق بالمرر في كل حين ، ومن هنا يعود على شاعره برفق
منه ما كان قاصداً ، ويستوي له ما استطاع من السكال والجمال ، وأيضاً فإن مبيعات
الاسترسال بين الشعراء متفاوتة فمنهم من يتلب على كثرة شعره ، ومنهم من لا
يحطى به إلا قليلاً .

وعما قاله الشعراء الفقهاء ارتجالاً أبيات لشريح بن الحارث الكندي قص فيها
بين جدته وأم في حي توفي عنه أبوه ، وزوجت من بعده أمه (١) .

ولالإمام الشافعي مقطوعة نظمها عندما سمع ب وفاة صديق له وأراد أن يضي
لزمائه « قليل له » إن الموضع بعيد ، بقول فيها :

لئن بمدت دار المرزى ونابه من الدهر يوم والخطوب تنوب
لمشي على بمد على علة الوجا أدب ومن يقضي الحقوق دبوب
ألد وأحلى من مقال وخلفه يقال إذا ما قت أنت كذوب
وهل أحد يصغي إلى عذر كاذب

إذا قال لم تأت المقال قلوب^(٢)

ومن الأبيات المرتجلة أيضاً ما أورده ابن عساكر في تهذيب المؤذي عندما
اختصم وزوجه التي طلقها أمام معاوية في ولها (٣) .

• • • •

(١) انظر الايات في أخبار القضاة ٢/٤١٠ ، وحلقة ٤/١٣٠ ، وطبقات ابن سعد ٦/١٣٧ .
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٠٢ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ٧/١١٣ .

الفصل الثالث

شعر الفقهاء والمجتمع

١ - الشعر والحياة :

الشعر - كثيره من ظواهر الحياة - يمتد إليها بأواصر شتى ، ذلك أن مادته التي تقوم منها ، وما نظر دارس في شعر قوم إلا تصور من بينهم ملاحظ ومعلم ، غير أنه لن يتصور كل ملاحظها ومعلمها ، بل يحتاج إن أراد ذلك أن يسكف على آثاره الأخرى ، إضافة إلى الشعر ، فيدرس كتب عقائدهم وقوانينهم وتاريخهم وفلسفتهم واجتهادهم وأدبهم التراثي وتناجيم الحضاري وما ترك لهم من شيء يهدي إليهم . وليس من مهام الشعر أن يحضري تلك الجوانب ويسجلها بأمانة للأجيال ، وليس من طبيعته أن يفضل ذلك ، حتى الذي يتناوله منها إنما يتناوله - في أغلب الأحيان - وهو منقلد قارئ أو متأمل حالم ، وكلتا الحالتين تنبع بالقرين أن يمسك حياة يريته عكساً متطابقاً ، وتأتي أجنحة الخيال الشعري فتعبر به ، وتزيد من شققة الخيال مع الواقع .

وكان فريق من الباحثين والأدباء والفلاسفة دعوا الشعراء ليضاهقوا اهتمامهم بمجتمعهم^(١) ، فأحسنوا الدعوة ، فإن من واجب هؤلاء الأذكياء أن يشعروا بأمال الناس وآلامهم ، وهمومهم وأشواقهم ، وشؤونهم كافة ، وأن يجعلوا دكانهم في بناء المجتمع لا في إنكاسه ، وإرشاده لا إردائه ، فما أكسرت أن تنوز قوم بذكائهم فاهتموا وهدوا ، وما أكثر أن ضلوا عنه وأضلوا . ولكن باحثين آخرين حاولوا أن يلزموا الشعراء بمجتمعهم إلزاماً خانقاً ، فردوا عليهم أمرهم ، وسقطوا في خطئين ، أولهما غموض تصورهم للمزاج الشعري الذي يهوى أن يدع في حرثه وطلاقة ، وثانيهما غفلتهم عن أن الذين يفتشون بأمانيتهم وأحلامهم ويندبون لأشجانهم وأتراسهم ،

(١) انظر التيارات المعاصرة في النقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة (الطبعة الثانية) ٣٥ ، والادب والمجتمع لمحمد كمال الدين علي (القاهرة ١٩٦٢) ص ١٠ .

قال جانب الإبداع الفني في شعر الفقهاء كان ثمة و تنظم ، كثير ، غير أنه - حتى نهاية العصر العباسي الأول لم يكن يبلغ مقدار الذي بلغه الإبداع الفني ولم يكن يملك نصيبه ، ويتجلى النظم في النزعة العقلية وما أدت إليه من استعراض أشياء عقلية ، أو في فكر مجردة ، كما يتجلى في البساطة وما نزع إليه من الألفاظ السهلة ، والتراكيب البسيطة ، والفكر العامة ، والارتجال في بعض الأحيان .



حتى لو كانوا من أهل الفن والفن ، ، إنما هم في مجتمع مُهيّط ، وأن آثارهم - بها عانت المشاكل الاجتماعية - ليست إلا تصوراً لجوانب من تلك المشاكل .
ويمكن القول إن الماركسية المادية كانت من أشدّ دعاة الإلزام الاجتماعي ، إذ نادى الأدباء أن يميلوا فتم سلاحاً في الكفاح الطبقي (١) ، ومضت نمذ الآداب والفنون انصكاساً لأوضاع الاقتصاد في المجتمع (٢) ، وتؤكد أن هذا الاقتصاد أساس أو «بناء أدنى» يقوم من فوقه كلّ المثل الفكرية والثقافية ، وأن التناقض والعراع يتحكمان في بناء المجتمع الأدنى وفي بناء المجتمع الأعلى (٣) . وقد حاول بعض الدارسين أن يفسّروا هذه الآراء لا في أدبنا الحديث فحسب ، بل أيضاً في أدبنا العربي القديم ، فاندفع الشوباني بقسم المجتمع الاسلامي في عصر الأمويين قسماً إلى أثنين ، وبمشر الحركات الدينية فيه تفسيراً مادياً ، ويقول : «كانت الأمة العربية تنقسم في عصر الأمويين إلى طبقتين رئيسيتين : طبقة ذوي السطان والمال ، وطبقة الجوع المرأ . . . لم يكتفوا (الفقراء) عن مقاومة الحكم الاموي ، ولكن نضالهم الثوري السياسي الطابع الاقتصادي المهدف تنلف بالمتفادات الدينية ، مسارة لاتجاهات مصر ، فظهرت الأحزاب في شكل أحزاب مذهبية يستنق كل منها مبادئه بيسدو عقيدية ، وهي في حقيقة أمرها سياسية اجتماعية» (٤) . . . وينقل إلى مصر السياسي فادا لبال - في رأيه - قوة ليس كمثلها قوة ، وإذا هو عصر «تحكمت الطامع في الضائر ودارت المارك ضاربة في سبيل المال والسلطان . . . أما شعراء ذلك العصر وأكثرهم ارتفع بأدبه من الطبقة الدنيا إلى الطبقة الوسطى ، فيمربون - على الألعاب - عن معتقدات هذه الطبقة الأخيرة ويبررونها بمختلف التبريرات» (٥) . وعلى نحو ما حاول أن يفرض الشوباني المصطلحات الماصرة كالتنزال الثوري والطبقة الدنيا والوسطى على الأدب القديم كان كلما لمح للاقتصاد أثراً ألبسه كسوة المفاهيم الحالية من مثل الفلسفة التجريبية الوافية (٦) والتفاوت الطبقي (٧) وفكرة أن الحياة

- ١) انظر فن الشعر للدكتور احسان عباس (الطبعة الثالثة) ص ١٢٦ .
- ٢) انظر الادب والفن في ضوء الوافية لفريخيل ، ترجمة الشوباني (طبع دار الفكر العربي) ص ٨٠ .
- ٣) الادب والفن في ضوء الوافية ١٤٠ . ٤) الادب ومذاهبه للشوباني (البيضة المصرية الملة) ص ٥٥ و ٥٦ . ٥) الادب ومذاهبه ص ٥٨ و ٥٩ .
- ٦) الادب ومذاهبه ص ٧٧ . ٧) الادب ومذاهبه ص ٧٠ .

صراع بين الناس (٨) .

ومن الحق أن تقسيم المجتمعات الاسلامية هذه القسمة الطبقيّة ينطوي على غير قليل من الخيف والاجحاف ، فإلى جانب أن «حجرات الطبقات حرن ينفج في كل جيل لطائفة من الأمة يدخلون منه أو يخرجون . وينبدلون من ثم طبقة غير الطبقة ، وعملاً غير الممثل في المجتمع أو البيئة» (٩) ، فإن من الخطأ أن يظن باحث أن الشعر - حتى في المجتمعات الطبقيّة - إنما هو «حكر طبقة واحدة دون سواها» وكذلك لا بد أن تتساءل : هل يبقى مجال القول رجباً فسيحاً إذا «علقت من دونه السبل إلا فيما كان من أمر طبقة الأدب» ؟ أو ليس للأديب ذاتية «منطلقة ومناعه متميزة» ؟ وإذا أعجبه من غير طبقة مَحْجَب ؛ هل يملك مراجعُه ألا يرضى عنه ويرتجح إليه ؟ وأمي الأسباب توارى خلف انحصار فلاذير ماياكوفسكي ، شاعر الثورة الروسية ، عام ١٩٣٠ (١٠) ، غير انحصار الطلبة أمامه وتقلص الضار ؟ وماذا أدى بالكسندر سولجنيسين ، الأديب ، إلى المتفلات السوفياتية ، ثم النفي ، إلا نحو اعتقاده بناصره الحق أني وجدته مما أعلنه في رسالته إلى مؤتمر الكتاب السوفيات عام ١٩٦٦ فقال : « لا أحد يستطيع أن يقطع الطريق أمام الحقيقة ، أنا مستعد» لمجاهة الموت لكي تتقدم» (١١) ؟

ومن ينظر - بنصفة - إلى تاريخ المجتمع الاسلامي في تراثه «طبقات الشعراء» أو «طبقات الصحابة» أو «طبقات الفقهاء» أو «طبقات المهديين» أو طبقات المئات الأخرى التي اجتمعت على اختصاص واحد ، غير أنه لن يجد فيه طبقات متنازعة في سبيل الاقتصاد متصارعة لوجهه ، وما كان لأمة أقوام كيلتها الإيمان بالله ، لا بالسادته ، أن تهوي في شقاق ليس ينبعث عن تلك المساعدة الربيضة ، بينما آيات الذكر الحكيم وأحاديث رسول الله ﷺ تنقل عليهم آفاه الليل

- ١) الادب ومذاهبه ص ٥٩ . ٢) الشوعية والانسانية لباس محمود الفاد (القاهرة - الطبعة الاولى) ص ١٣٩ .
- ٣) انظر في جديدة للدكتور عائشة عبد الرحمن (القاهرة ١٣٨٦) ص ٢٦٥ . ٤) مجلة الصياد (شباط ١٩٧٤) ص ٦٩ .

وأطراف النهار وتهاجم أن يختلفوا^(١) أو يتهاجروا أو يتآذوا^(٢)، في الوقت الذي تدعوم أو يتماونوا^(٣) على البرء والتقوى، ويتماضوا صفاً واحداً كأنهم بنيان مرسوم.

وليس في هذا تكران لأثر الاقتصاد في الحياة والمجتمعات، إلا أن النظر الشاملة، تؤكد، وصحائف التاريخ تشهد أن الاقتصاد لم يكن قهراً المجتمع الإسلامي ولا أساس انقسامه، ومن الخطأ أن تقدم نظريات عمرية في تاريخ قديم، ونفسه على أهوائها، وتُشطن عظاماً تخيرة بمصطلحات لم تتوالت إلا بعدها بمئات السنين، ومن الخطأ أيضاً أن يظن دارس أن الأدب العربي في العصر النبوي أو غيره من العصور المتقدمة كان يصور طبقة واحدة أو فئة واحدة، أو لا يعرض من المجتمع الإسلامي ملامح ومسلم تمت إلى جوانبه شق، وإن لم يكن يتعرض تلك الجوانب مخصصة مفصلة، إذ ليس من طبيعته ذلك كما رأينا، وليس لباحت أن يطله منه.

٢ - صورة المجتمع الإسلامي في شعر الفقهاء:

ومن يقرأ في شعر الفقهاء يجد مصداق ما ذهب إليه من استعراضه لجوانب شق من المجتمع الإسلامي، دون أن يحصها إحصاء ولا يفصلها تفصيلاً، ومن تلك الجوانب فيه قائمة من أسماء بلدانه، وأشتات من تضاريسه وطقسه ونباته وحيوانه وسكانه، وأطراف من المقيمة والعبادة، ومياري الإنسان الصالح وعبر الصالح، وحوادث سياسية، وشؤون فكرية، وجوانب مالية، وطائفة من الماديات الاجتماعية.

١) من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» (سورة آل عمران ١٠٥) وانظر للسند ٧٠/٣... ٢) انظر أحاديث تنهى عن إيذاء الملوك (السند ٦٥/١١) وتصنيفهم (رياض الصالحين ٣٨٧) والصفاء بينهم (رياض ٣٩٥) والنسبة (رياض ٣٧٦) والتمسك (رياض ٣٨٨) والنسب (رياض ٣٩٢) وسوء الظن (رياض ٣٩٠) والسدنة (رياض ٣٩١) والتجسس (رياض ٣٨٩) والفتنة (رياض ٣٦٩) والفتن (رياض ٣٩٣) والافتخار (رياض ٣٩٤) ... ٣) انظر على سبيل المثال سورة الحجرات ١٠، والنحل ٧١، والسند ١٤/١٤، ١٥٤/٧، ١٠٩/٧، والزهد والرقائق ١١٨ ورياض الصالحين ١٦٧ و ١٧١، والتجريد الصريح ١/١٥٠ و ١٠٢/١.

فمن البلدان الإسلامية في شعر الفقهاء الحجاز^(١)، ومكة^(٢)، والمدينة^(٣)، وبني^(٤)، والقيظ^(٥)، وشوطة^(٦)، والشري^(٧)، وقديده^(٨)، وحقيبر^(٩)، وغميرة^(١٠)، وثمرة^(١١)، وحيماني^(١٢)، وشب المشاش^(١٣)، وتلمة^(١٤)، الرخمة^(١٥)، وقنة السلطنة^(١٦)، وذو الأجرح^(١٧)، والنعم^(١٨)، وضاحك^(١٩)، وعيود^(٢٠)، والرؤساء^(٢١)، واليمن^(٢٢)، والمراق^(٢٣)، والطف^(٢٤)، وواسط^(٢٥)، والكوفة^(٢٦)، وبشاد^(٢٧)، وسرا^(٢٨) من رأى^(٢٩)، والثوبنة^(٣٠)، ومينسان^(٣١)، وحي^(٣٢)، وجابلق^(٣٣)، والشام^(٣٤)، ودمشق^(٣٥)، وهضاب بردى^(٣٦)، ودبر سيمان^(٣٧)، ودومة^(٣٨)، والجسرين^(٣٩)، ولبنان^(٤٠)، ومصر^(٤١)، وطنجة^(٤٢)، وأماكن أخرى، وكل ذلك يرسم للقارئ لوحة هريضة للدار الإسلامية تمتد من طنجة في المغرب حتى فارس في المشرق.

- ١) انظر أيباناً لزهري في ترتيب المدارك ١/١٩٩ - ٢) انظر ديوان أبي الأسود ١٨٥ وشعر عروة ٢٨٠.
- ٣) انظر شعر النعمان ١٠٩ و ١١٩ وسماها يربح، وأيباناً لزيد بن علي في تاريخ الموصل ١٤، وشعر عروة ٢٨٣ وسماها طيبة.
- ٤) انظر شعر عروة ٢٨٣.
- ٥) انظر شعر عروة ١٧٥، والقيظ موضع بالدينة.
- ٦) انظر شعر عروة ٣٧٩ و ٣٥١.
- ٧) شعر عروة ٣٠١.
- ٨) شعر النعمان ١٢٣.
- ٩) شعر النعمان ١٢٩.
- ١٠) شعر النعمان ١٣٩.
- ١١) شعر عروة ٢١٦.
- ١٢) شعر عروة ١٦٦.
- ١٣) شعر عروة ٩٦ و ١٧٥.
- ١٤) شعر عروة ٩٦.
- ١٥) شعر عروة ٩٧.
- ١٦) شعر عروة ١١١.
- ١٧) انظر شعراً لابن حنبل في الأغاني (دار الثقافة) ١٤٧/٩.
- ١٨) شعر عروة ٣١٨.
- ١٩) شعر عروة ١٩١، وكل المواضع الساجدة في شبه جزيرة العرب.
- ٢٠) شعر النعمان ١٣.
- ٢١) انظر شعراً لزيد بن علي في تاريخ الموصل ٢٤.
- ٢٢) ديوان أبي الأسود ١٨٢.
- ٢٣) شعر عروة ٣٧٢.
- ٢٤) انظر شعراً لابن المبارك في المهرست ٢٨٤.
- ٢٥) شعر عروة ٢٦.
- ٢٦) انظر شعراً لابن أبي دؤاد في أخبار القضاة ٣/٢٩٩.
- ٢٧) شعر النعمان ١٤٢.
- ٢٨) ديوان أبي الأسود ١٤١، وهذه كما هو واضح، أماكن عراقية.
- ٢٩) ديوان أبي الأسود ١٠٩.
- ٣٠) ديوان أبي الأسود ١٩٠، وهي ويابلق بأصبهان.
- ٣١) شعر النعمان ١٣٠.
- ٣٢) شعر النعمان ١٣٧.
- ٣٣) شعر النعمان ١٤٣.
- ٣٤) انظر أيباناً لحارب بن دثار في أخبار القضاة ٣/٣٢٢.
- ٣٥) شعر النعمان ١٥٣.
- ٣٦) شعر النعمان ١٤٢.
- ٣٧) ودومة والجسرين في الشام.
- ٣٨) شعر عروة ١٢٦.
- ٣٩) انظر أيباناً للشافعي في معجم الأدباء ١٧/٣٢٠.
- ٤٠) شعر عروة ١٢٦.
- ٤١) انظر أيباناً للشافعي في معجم الأدباء ١٧/٣٢٠.
- ٤٢) شعر عروة ١٢٦.

وما إلى برجع القارىء بصره في تلك اللوحة الواسعة حتى تلقاه تضاريسها وجواؤها، فهذه جبال القنات (١)، والجرد (٢)، والاكليل (٣)، وثير (٤)، وجسمى (٥)، وهضاب بردى (٦)، وسهول منسطة فسيحة (٧)، وسحار يرتد عنها الطير (٨)، بينما يزدال سراها (٩)، وتنتشر في أماكن منها شق سهوب رملية وكثبان (١٠)، وعلى فترات من الزمن يهيج في سمائها عيار خارق ثقيل (١١)، وإذا ما حان الصيف وجدت فيها لفة ليلية عمراً (١٢)، فإذا مضى وحل الشتاء شهدت بعض المناطق تياراً بارداً يهب عليها من الشرق والشمال (١٣)، وليس هو الوحيد في البلاد، فشمسة رياح أخرى هي الدبور والجنوب (١٤)، وربما اشتدت تلك الرياح وشكلت إعصاراً يملأ الآفاق اليمامة (١٥)، وما أكثر أن ترحب الرياح إلى الأراضي الميطاش سحاباً (١٦)، يهيم عليها وابلأ (١٧) زكياً، فإن لم يكن وابلأ فطل (١٨)، ومن صيب السماء تجري أنهار غزيرة كالفرات (١٩)، وقد تضب بركور الأيام وتحول أودية تليل حيين النيث فحصب، كقل الثرثار (٢٠).

= مناقب الشافعي للبيهي ٦٧/٢ - ١) شعر النعمان ١٢٩، واقناتان: جبل بنجد.
 ٢) شعر النعمان ١٤٣، والجرد في ديار بني سليم بالحجاز. ٣) شعر النعمان ١٦٣، والاكليل في ديار حمدان باليمن. ٤) شعر عروة ١٣٦ و ١٦٤ وانظر شعراً لابراهيم النخعي في مجالس ثعلب ١/١٤، وثير: في ظاهر مكة.
 ٥) شعر عروة ٢٦٤ وجسمى أرض بالبادية بها جبال شواهق لا يكاد القنم يفارقها. ٦) شعر النعمان ١٤٣. ٧) شعر عروة ١٦٦.
 ٨) شعر النعمان ٧٩ و ١٢٤ و ١٤٥ وديوان أبي الأسود ١٤٥.
 ٩) ديوان أبي الأسود ١١٥، وشعر عروة ١٦٤. ١٠) ديوان أبي الأسود ١١٥ وشعر عروة ١١٤ و ١٩٦. ١١) شعر عروة ١٦٤ و ١٩٣ و ٢٥٣.
 ١٢) شعر عروة ١٦٤. ١٣) وهما المصبا والشمال، انظر شعر النعمان ١١٠، و ١١٧، وشعر عروة ١٥٠. ١٤) شعر عروة ١٥٠، والدبور: ربح تقابل المصبا، والجنوب تقابل الشمال. ١٥) ديوان أبي الأسود ١٤٥.
 ١٦) ديوان أبي الأسود ١١٦. ١٧) شعر النعمان ١١٧، وديوان أبي الأسود ١٢٥ و ١١٥. ١٨) ديوان أبي الأسود ١١٥. ١٩) شعر النعمان ١٤٩، وانظر آياتاً للشافعي في معجم الأدباء ٣١٠/١٧. ٢٠) شعر النعمان ١٤٩، وهو واد بالعراق.

وقناة (١)، وبرهوت (٢)، وريم (٣).

ودائماً ينضرب بالنيث نبات مختلف ألوانه، وينثر في لوحة المجتمع الإسلامي منه أبتك (٤)، وخائل (٥)، وشوار (٦)، وريحان (٧)، وخزأسي (٨) وأزاهير غيرها (٩)، ورز (١٠)، وشعر (١١)، وهيب (١٢)، ونخيل (١٣)، وپرس (١٤)، وأراك (١٥)، وزبر (١٦)، وكبناث (١٧)، وعصا (١٨)، وحوذان (١٩)، وصاب (٢٠)، ومرار (٢١)، وحسطل (٢٢)، وطمم (٢٣).

وكثيراً ما يلقانا في تلك النياض والرياض وفي الصحارى والانهار حيوانات متنوعة، منها:

- ١) و ٢) شعر النعمان ١٣٩، وقناة واد بالمدينة، وبرهوت واد باليمن.
- ٣) شعر عروة ٣٧٦، وريم واد بالحجاز. ٤) انظر آياتاً للدؤلي في نهاية الأرب ٢/٢٤٨، والأبتك: الشجر الملقب الكثير. ٥) شعر عروة ١٥٧ و ٢١٩. ٦) شعر عروة ١٩٩ و ٢١٩، والشوار: أزهار الشمس.
- ٧) انظر شعراً للشافعي في مناقب الشافعي للرازي ٢٠٦. ٨) شعر عروة ٢٦٤، والخزأسي نبت أو خيري البره زهره أظيب الأزهار تنفحة.
- ٩) شعر عروة ٢١٩، وديوان أبي الأسود ١١٩. ١٠) و ١١) انظر شعراً لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المعدي) ٦٠. ١٢) ديوان أبي الأسود ١٩٧.
- ١٣) شعر النعمان ١٥٤ وانظر شعراً للشافعي في مناقب الشافعي للرازي ١٩٩.
- ١٤) شعر عروة ٢٧٤، والبُرس: القطن. ١٥) و ١٦) و ١٧) شعر عروة ٢٩١، والأراك: شجر يستاك به، والبُرس: ثمر الأراك قبل أن ينضج، والكبناث: ما نضج منه. ١٨) شعر عروة ٢٩٣ وشجر النضا مشهور بشدة اقتضاه. ١٩) شعر النعمان ١٦٤، والحوذان: نبت له زهرة حمراء في أصلها سفرة. ٢٠) ديوان أبي الأسود ١٤٣ و ١٩٩، والنساب شجر مره مفرد صاب.
- ٢١) ديوان أبي الأسود ١٤٣، والمرار شجر مره. ٢٢) شعر النعمان ١٠٤ و ٢٣) ديوان أبي الأسود ١٥٨.

الأبل (١) ، والحليل (٢) ، والنهبا (٣) ، والسيار (٤) ، والعتان (٥) ، والنمر
 (٦) ، والفيران (٧) ، والشمام (٨) ، والمون (٩) ، والأنسود (١٠) ، والتمالب (١١) ،
 والذئاب (١٢) ، والكلاب (١٣) ، والوعول (١٤) ، والحيتان (١٥) ، والشماليين (١٦) ،
 والحرازي (١٧) ، وخيشاش الأرض (١٨) ، والضب (١٩) ، والحطائف (٢٠) ، والجراد
 (٢١) ، والذباب (٢٢) ، ومن الطيور الحمام (٢٣) ، والقطا (٢٤) ، والقمر (٢٥) ، والحباري
 (٢٦) ، والنسور (٢٧) ، والمقيان (٢٨) .

- ١) شعر النعمان ٨١ و ١٠٨ و ١٢٣ ، ديوان أبي الأسود ١١١ .
- ٢) شعر النعمان ٧٩ و ١٥٢ و ١٥٣ ، وانظر شعراً لابن عباس في حياة الحيوان
 ١/٣٧٩ ، وشعراً لشريح بن الحارث في كتاب نسب قريش ٤٤٧ ، وشعر عروة ٢٠٥ .
- ٣) شعر النعمان ١٠٨ ، وشعر عروة ٨٠ و ١٢٨ و ٢٧٥ ، والمهابة البقرة الوحشية .
- ٤) ديوان أبي الأسود ١١٦ و ١٥٤ . ٥) ديوان أبي الأسود ١٤٧ ، وانظر
 شعراً للشافعي في حراسة الظرفاء ١/١٧٥ . ٦) ديوان أبي الأسود ١٣٧ .
- ٧) شعر النعمان ١٦٣ و ١٦٤ ، وانظر شعراً لابن عتبة في الأغانى (دار الثقافة)
 ٩/١٤٥ ، وشعر عروة ١١٤ . ٨) شعر عروة ١٥٨ و ٢٣٣ .
- ٩) شعر عروة ١٦٠ والمون : محمّر الوحش . ١٠) ديوان أبي الأسود
 ١١٧ و ١٢١ ، وشعر عروة ١٧٨ و ٣٠١ . ١١) ديوان أبي الأسود ١٥٨ ،
 وشعر عروة ٢١٢ و ٣٠١ . ١٢) شعر النعمان ١٢٦ ، وديوان أبي الأسود ١١٨ ،
 وشعر عروة ٢٧٤ و ٣٠٧ و ٣١٠ . ١٣) ديوان أبي الأسود ١٥٠ و ١٦٧ ،
 وانظر شعراً لشريح بن الحسن والساوي ٢/٢١٦ . ١٤) ديوان أبي الأسود ١٦٢ .
- ١٥) شعر عروة ١٢٣ . ١٦) ديوان أبي الأسود ٢٤٠ ، وشعر عروة ٢٤٢ .
- ١٧) شعر عروة ٢٧٥ . ١٨) شعر عروة ١٧٩ . ١٩) شعر عروة ١٣٣ .
- ٢٠) انظر شعراً للشافعي في الفتوحات الوهبية ٢٥١ . ٢١) شعر عروة ٢٤٩
 و ٢٧٥ . ٢٢) ديوان الامام الشافعي ٧٧ . ٢٣) انظر شعراً للدؤلي في نهاية
 الأرب ٢/٢٤٨ . ٢٤) شعر النعمان ٧٩ و ١٥٢ ، وديوان أبي الأسود ١١٥ ،
 وشعر عروة ١٦٤ . ٢٥) شعر النعمان ١١٩ ، والقمرية ضرب من الحمام .
- ٢٦) ديوان أبي الأسود ١٨٨ . ٢٧) ديوان أبي الأسود ٢٥٠ .
- ٢٨) ديوان الامام الشافعي ٧٧ .

والفيران (١) ، والصفور (٢) ، والبومة (٣) ، والأيتق (٤) ، والبثاق (٥) .

وإذا عدنا تتأمل لوحة المجتمع الاسلامي في شعر المعناه وجدنا فيها اشتراكاً
 من القبائل المروفة تحيا وتذب في تلك البيئة المرسومة ، ووجدنا الأزد (٦) ،
 والأوس والخزرج (٧) ، واليمنيين (٨) ، وبنو كلب (٩) ، والشماليين وقبائل ممد بن
 عدنان (١٠) ، وزار بن ممد (١١) ، وحيثي زرار ربيعة ومضر (١٢) ، وبنو قشير بن
 كعب بن ربيعة (١٣) ، وقيس عيلان بن مضر (١٤) ، وخيشاف (١٥) ، وخزينة (١٦)
 ابن مدركة بن إلياس بن مضر ، وكنانة بن خزيم (١٧) ، وبنو مالك بن كنانة (١٨) ،
 وبنو بكر بن كنانة (١٩) ، وبنو عبد مناة (٢٠) بن بكر ابن كنانة . وتغلب (٢١) ،
 ولؤي بن غالب (٢٢) بن فيهر ، وقريش (٢٣) بن النضر بن كنانة ، وهذشم (٢٤)
 وهاتم (٢٥) .

- ١) انظر شعراً لابن عتبة في الأغانى والقفافة ٩/١٤٥ ، وشعر عروة ٢٦٦ .
- ٢) شعر عروة ٣٠١ . ٣) انظر شعراً للشافعي في مختصر تذكرة القرطبي
 للشراي ١٦ . ٤) شعر عروة ٢٣٢ ، والابتق جمع الاتوق وهو طائر الرخمة .
- ٥) شعر عروة ٣٠١ ، والبثاق طائر دون الرخمة بطي الطير ان يبيل لونه إلى الغيرة .
- ٦) شعر النعمان ١٤٥ و ١٥٠ . ٧) شعر النعمان ١٥١ . ٨) شعر عروة ٩٠ .
- ٩) شعر النعمان ١٣٥ . ١٠) شعر عروة ٩٠ و ١٣١ و ٢٠٨ و ٢٢٥ و ٢٣٥ .
- ١١) ديوان أبي الأسود ١٨٢ . ١٢) شعر عروة ٢٢٧ . ١٣) ديوان
 أبي الأسود ١٨٢ . ١٤) شعر عروة ١٣١ و ٢٢٧ و ٢٣٤ . ١٥) شعر عروة
 ١٣١ و ٢٠٥ و ٢١٠ و ٢٢٥ و ٢٢٧ و ٢٣٤ ، وختند بنت حلوان زوج إلياس بن
 مضر وقد نسب إليها بنوها . ١٦) شعر عروة ٩٠ . ١٧) شعر عروة ٢٢٥
 و ٢٣٧ و ٢٤٠ . ١٨) شعر عروة ٢٧٨ . ١٩) شعر عروة ٢١١ و ٢٢٥ .
- ٢٠) شعر عروة ٢٧٨ . ٢١) شعر النعمان ١٣٥ و ١٤٩ . ٢٢) شعر النعمان
 ١٨٥ . ٢٣) شعر النعمان ١٥٤ و ١٥٦ ، وشعر عروة ٨٩ و ١٣٥ و ١٣٦ و ٢٢٥ .
- ٢٤) شعر النعمان ١٥٧ . ٢٥) شعر النعمان ١٥٧ ، وديوان أبي الأسود ١٨٠ .

ومن بدرس عقائد هؤلاء القوم من سكان المجتمع الإسلامي ؛ يجدم قوماً
ربانيين موحدن مؤمنين بالله ، شاهدين أنه مالك الملك (١) الكريم (٢) الرزاق (٣)
المُنشئ (٤) ، المُنشئ (٥) ، الرحمن (٦) ، الرحيم (٧) ، المقوِّم (٨) ، المنور (٩) الودود (١٠)
الحميد (١١) ، السَّبَّح (١٢) ، الحمود (١٣) ، الناصر (١٤) ، المعين (١٥) ، العزيز (١٦) ،
الخالق (١٧) ، الباري (١٨) ، الحازي (١٩) ، الحسيب (٢٠) ، الموفق (٢١) ، الحق (٢٢)
الهيمن (٢٣) ، العظيم (٢٤) ، الجليل (٢٥) ، القدير (٢٦) ، الخبير (٢٧) ، الحكيم (٢٨)
العدل (٢٩) ، التمتالي (٣٠) ، له الحكم (٣١) ، وله الأمر (٣٢) ، وله الفضل (٣٣) ،

(١) شعر النعمان ٨٥ .

- (٢) انظر شعراً للإمام الشافعي في هدية الأمم ٣٠ وحامسة الظرفاء ١/١٧٥ .
٣ و ٤) شعر النعمان ٩٨ و ٩٩ . ٥) شعر النعمان ٨٥ . ٦) ديوان أبي
الاسود ٣٢٩ . ٧) شعر النعمان ٩٢ ، وانظر شعراً لابن المبارك في تاريخ ابن
عساكر (معه) ج ٦ (عبدالله بن المبارك) . ٨) تاريخ ابن عساكر (معه)
ج ٦ (عبدالله بن المبارك) . ٩) و ١٠) شعر النعمان ٩٢ . ١١) و ١٢) و
١٣) شعر النعمان ٨٥ . ١٤) و ١٥) شعر النعمان ٨٢ . ١٦) ديوان أبي
الاسود ١٥٣ . ١٧) انظر شعراً لمخرب بن دقار في أخبار القضاة ٣/٢٩ ، وشعراً
للإمام الشافعي في الناف للرازي ٧٥ . ١٨) ديوان أبي الاسود ١٨٢ .
١٩) و ٢٠) انظر شعراً للدؤلي في الاطفي (الثقافة) ١٢/٣١٤ .
٢١) انظر شعراً للمر بن عبدالعزير في سيرة عمر بن عبدالعزير ٢٣٠ .
٢٢) انظر شعراً لمخرب بن دقار في أخبار القضاة ٣/٢٩ انظر أحياناً
لشافعي في نور الأضواء ٢١٦ . ٢٣) انظر أحياناً للشافعي في نتيجة الأماكار ٨ .
٢٤) شعر النعمان ٨٥ . ٢٥) و ٢٦) و ٢٧) و ٢٨) و ٢٩) انظر تاريخ ابن
عساكر (المعه) ج ٦ (عبدالله بن المبارك) . ٣٠) شعر النعمان ٨٦ .
٣١) شعر النعمان ٨٥ .
٣٢) انظر أحياناً للدؤلي في الأغانى (الثقافة) ١٢/٣٠٦ ، وديوانه ٢١٠ .
٣٣) انظر أحياناً للشافعي في حماسة الظرفاء ١/١٧٥ ، وهدية الأمم ٣٠ .

وله الحمد (١) ، لا نديده له (٢) ، ذو العرش (٣) ، الباقي (٤) ، بقلب الليل والنهار (٥)
وهو الذي بنى سيباً طابقاً ومن الأرض مثلهن (٦) ، ومرج البحرين (٧) هذا عذب
فراث سائح شرابه وهذا ملح أجاج .

وم مع إيمانهم بالله يؤمنون باليوم الآخر ، وانبعثت الناس من قبورهم ليوم
الحساب والفضل (٨) ، وشهادتهم حول ذلك اليوم المصير (٩) ، إذ تأتي كل نفس معها
سائق وثبير (١٠) ، ليس لها من دون الله من ناصر (١١) ، وهناك يشهد على المرء
جلده وسمعه وبصره (١٢) بما قدم من عمل ، يتلقى صحيفته الجامعة (١٣) ، فأما الأبرار
الصالحون فيدخلون جنات لهم فيها ما اشتبهت أنفسهم (١٤) من نعم باقية (١٥) ، ولؤلؤ
وزرجد (١٦) ، وحور عين (١٧) .

وأما المكثرون الضالون فيشهدون عذاباً مقيماً (١٨) ، ويطمعون ضرباً وصيداً
(١٩) ، وكما رجوا مخرجاً من غم جهنم رددت على أجمعهم : وهل من مزيد (٢٠) ؟
وكما يؤمن المجتمع الإسلامي بالله واليوم الآخر يؤمن أيضاً بالأنبياء من لدن
آدم حتى محمد عليه السلام ، ذلك أنهم يمشوا بحق (٢١) ، على حد تمييز القاضي مخارب
ابن دقار ، وبديهي أن يكون لصاحب الرسالة الخاصة في قلوب القوم ميزة واختصاص ،
ذلك أنه المختار (٢٢) ، ليحمل عبء الدعوة ، وبلغ البشرية هديتها الرشيد (٢٣) ،
ومقاصدها الحكيمة (٢٤) ، وقد ترك من بعده سنة فاضلة (٢٥) ، يستغنى بأشمتها

- (١) شعر النعمان ٨٧ . ٢) شعر النعمان ٩٤ . ٣) شعر النعمان ٨٥ .
٤) شعر النعمان ٩٨ . ٥) شعر النعمان ٩٥ . ٦) شعر النعمان ٩٨ .
٧) شعر النعمان ٩٢ ، وانظر أحياناً لسابق في شعر الدعوة ٣٤٢ .
٨) شعر النعمان ٩١ . ٩) شعر النعمان ٩٣ . ١٠) و ١١) و ١٢) انظر
شعراً لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المعه) ج ٦ (عبدالله بن المبارك) .
١٣) شعر النعمان ١٠٠ . ١٤) ديوان أبي الاسود ١٨١ . ١٥) شعر النعمان ١٠٠ .
١٦) انظر أحياناً للشافعي في نور الأضواء ٢١٤ . ١٧) و ١٨) شعر النعمان ٩٠ .
١٩) شعر النعمان ٩١ وانظر شعراً لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المعه)
ج ٦ عبدالله بن المبارك . ٢٠) أخبار القضاة ٣/٢٩ . ٢١) شعر النعمان ٩٤ .
٢٢) شعر النعمان ٩٤ . ٢٣) أخبار القضاة ٣/٢٩ . ٢٤) شعر عروة ٩١ و ١٣٤ .

المباد (١). وقد أزل عليه من ربه نوراً.

وعلى نحو اختصاص آخر الأنبياء بآيات ومكارم اختص القرآن في قلوب المؤمنين بمكانة عليّة، فهو الأمر والنهي (٢)، وهو الحكيم الصادق (٣)، يهدي إلى الرشاد (٤)، ويقضي بالحكمة (٥)، وينذر بالوعيد (٦)، فتقشّر منه جلود الذين آمنوا (٧).

والمجتمع الإسلامي يؤمن كذلك باللائكة البرّرة (٨)، ويقضاه الله وقدره (٩)، ويؤمن أن ثمة مخلوقات أخرى هي الجن (١٠) وزعيمها إبليس (١١).
ودائماً يندفعهم الإيمان إلى جملة صالحات من العبادات كالصلاة (١٢)، والزكاة (١٣).

- ١) انظر في سيرة عمر بن عبدالمزین ص (٢٣٠) شعراً للخليفة السادس.
- ٢) شعر النعمان ٩٦. ديوان أبي الأسود ١٩٤. ٣
- ٤) انظر شعراً لابن المبارك في المقدم القريب ٤٧٤/٢. ٥) شعر النعمان ٩٣.
- ٦) شعر النعمان ٨٩. ٧) انظر شعراً لعامر بن صالح في تاريخ بغداد ٢٣٥/١٤، وأيضاً لابن المبارك في تاريخ ابن عساکر (المهد) ج ٦ (هداية ابن المبارك).
- ٨) انظر شعراً لزید بن علی في المستطرف ٢٢٦/١، والسابق في شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٣٣٩، والشافعي في مناقب الشافعي الرازي ٧٩ و٢٢٧.
- ٩) وروضة المقلاء ١٠٨. ٩) تاريخ ابن عساکر (ج ٦) عبد الله بن المبارك.
- الجن صنف من المخلوقات لا يملك الإنسان من الخواص ما يستطيع أن يدركها بها، وقد أخبر الذكر الحكيم عن فريق صالحين من عالم الجن قد آمنوا برسالة محمد ﷺ وصدقوها، كما أخبر عن فريق ثان لم يؤمنوا، وهؤلاء هم المغاربت والشياطين المتمردون الذين لا يبالون بالإضرار بن سوام، والوسوسة بمواطن السود لبني آدم. قال تمال يحكي كلامهم: «وأثنا منا الصالحون ومنا دون ذلك، كنا طرائق قيدا» (سورة الجن ١١).
- ١٠) ديوان الامام الشافعي ٢٧ و مناقب الشافعي للبيهقي ٢١٦/٢. ١١) انظر ايضاً لتاريخ بن الحارث في الحارثي والحاسن والساوي ٢١٦/٢.
- ١٢) انظر ايضاً للشافعي في مختصر تذكرة القرطبي للشمراني ١٦.
- ١٣) شعر عروة ٢٨٣.

وحج البيت الحرام (١)، والأمر بالعرف والنهي عن المنكر (٢)، والجهاد في سبيل الله (٣)، ونشر شريعته (٤)، وطاقته (٥) وطاقته (٦) وهجران الماضي والآثم (٧)، وكذلك كان يزودهم بشحنة غامرة من المشاعر الشفيقة من ورح (٨)، وتقوى (٩) وخشية (١٠) وذكر له (١١)، وثقة به (١٢)، وتوكل عليه (١٣)، ومن زهد (١٤) وقناعة (١٥) وعفاف (١٦).

وأيضاً كان للإيمان هيمنة نافذة في ميار الإنسان الصالح في المجتمع الاسلامي وميار القيم، فمن انحصار الصالحة التي يرتفع بها المرء درجات في نفاذ تلك القيمة الوحيد أن يكون مسلماً (١٧) يحظى الله (١٨)، وتوكل عليه (١٩)، رفيع السجدة طيب القائل (٢٠)، متفكراً (٢١).

- ١) شعر عروة ٢٨٣. ٢) انظر أحياناً لابن شبرمة في أخبار القضاة ٩١/٣.
- ٣) شعر عروة ٢٣٥ و ٢٤٣. ٤) شعر عروة ٢٨٦.
- ٥) شعر النعمان ٩٢، وانظر أحياناً للدؤالي في الأغاني (الثقافة) ٣٠٦/١٤.
- ٦) شعر النعمان ٩٠، و٩٧، وقرأ أحياناً لابن المبارك في أدب الدنيا والدين ص ٨٨.
- ٧) انظر شعراً لابن المبارك في مختصر جامع بيان العلم وفضله ٨٥.
- ٨) انظر أحياناً لهداية ابن المبارك في جامع بيان العلم وفضله ٢٣٦/١.
- ٩) انظر شعراً لسابق البربري في شعر الدعوة ٣٩٩ و ٣٤٠، وشعر النعمان ٩٧ و ٩٠.
- ١٠) شعر النعمان ٩٢، وانظر أحياناً لأبي الأسود في أخبار القضاة ٢١٩/١.
- ١١) انظر أحياناً لسابق في شعر الدعوة الإسلامية ٣٤١ و ٣٤٨.
- ١٢) ديوان أبي الأسود ١٢٨ و ٢٢٧. ١٣) المصدر السابق ١٤٩ و ٢٢٧.
- ١٤) اقرأ أحياناً لابن شبرمة في تاريخ الاسلام للذهبي ٢٩٣/٥، ولابن المبارك في جامع بيان العلم وفضله ٢٣٦/١. ١٥) لابن المبارك في بهجة المجالس ٣٠٤/١.
- ١٦) شعر النعمان ١٠٢. ١٧) ديوان أبي الأسود ١٢٨ و ١٥٠، وانظر شعراً لابن عتبة في الأغاني (الثقافة) ١٣٩/٩. ١٨) ديوان أبي الأسود ٢١٠.
- ١٩) المصدر السابق ٢١٠. ٢٠) انظر شعراً لابن المبارك في الورقة ١٦.
- ٢١) ديوان أبي الاسود ١٧٠، وشعر عروة ٢٤٥، وانظر شعراً لابن عتبة في =

عالمًا (١١) ، قصبًا (١٢) ، بصيرًا (١٣) ، متأنياً (١٤) ، حليماً (١٥) ، شديد القول (١٦) ، خبيراً
 في تمييز صائبه من فاسده (١٧) حراً (١٨) غني النفس وإن احتاج (١٩) ، برآ (٢٠) ،
 مخلصاً (٢١) ، صادقاً (٢٢) وفيًا (٢٣) ، صابراً (٢٤) ، واسع الخير ، كثير المعروف (٢٥) ،
 صالح العمل (٢٦) ، ناصحاً (٢٧) حيثاً (٢٨) سهلاً لبناً لطيفاً (٢٩) ، عفوياً (٣٠) حافظاً
 للسانته غير ثقل (٣١) ، حازماً (٣٢) ، شجاعاً (٣٣) ، أيماً للضم (٣٤) ، متدلاً إذا
 أحب ، متدلاً إذا أبغض (٣٥) ، لا يستطيع الحقد إليه سيلاً (٣٦) .
 ومن المفضل التي تهوي بالمرء إلى "درك القم" والاستسكار أن يكون خالاً
 (٣٧) ، ملوئاً (٣٨) ،

- = الأمانى (الثقافة) ١٣٩/٩ . ١ دوان أبي الأسود ١٣٢ و ٢٢٥ .
 (٢) و (٣) المصدر السابق ١٤٣ (٤) و (٥) المصدر السابق ١١٨ و ١٣٨
 و ١٨٣ و ١٨٥ ، و شعر النعمان ١٠٧ ، و شعر عروة ٢٤٥ . (٦) شعر النعمان ٩٣ .
 (٧) دوان أبي الأسود ١٢٢ و ١٢٣ و ١٩٨ . (٨) دوان أبي الأسود ١٧٠ .
 (٩) شعر عروة ١٢٠ . (١٠) دوان أبي الأسود ١٥٣ .
 (١١) شعر النعمان ١٠٧ و ١٢١ و ١٥٩ . (١٢) دوان أبي الأسود ١٣٢ و ٢٠٠ .
 (١٣) المصدر السابق ١٩٨ . (١٤) المصدر السابق ٢٢٧ .
 (١٥) شعر النعمان ١٠٧ و دوان أبي الأسود ١١٨ و ١٥٠ و ٢١٥ ، و شعر عروة
 ١٧٠ و ٢٤٥ . (١٦) شعر النعمان ٩٣ .
 (١٧) دوان أبي الأسود ١٢٨ و ١٤٣ . (١٨) المصدر السابق ١٥٠ و ٧٣ .
 (١٩) المصدر السابق ٢١٥ . (٢٠) المصدر السابق ٢٠٧ .
 (٢١) المصدر السابق ١٢٣ ، و انظر شعراً لابن المبارك في كتاب الورقة ١٦ ،
 وفي ابن عساكر ٦ (ابن المبارك) . (٢٢) شعر النعمان ١٠٧ .
 (٢٣) شعر النعمان ١٠٧ و ١٠٩ و ١١٠ . (٢٤) شعر النعمان ١٢٢ و ١٤٦ .
 (٢٥) دوان أبي الأسود ١٣٨ . (٢٦) انظر آياتاً للشافعي في أدب الدنيا
 والدين ١٦٧ .
 (٢٧) دوان أبي الأسود ٢٠٠ . (٢٨) شعر النعمان ١٢١ .

آتما (١) متافاً (٢) غادراً (٣) خائياً (٤) خائياً (٥) كذاً (٦) غادراً (٧) فادراً (٨)
 متقياً (٩) ، لثيماً (١٠) ، حقوداً (١١) ، حسوداً (١٢) ، منبهاً النفس ولو شخرو
 المال (١٣) ، طاعياً إذا قدر (١٤) ، فظاً غليظاً (١٥) ، كثير الثمر (١٦) ، بطن إذا
 ملك (١٧) ، وبين إن أعطى (١٨) ، مسرفاً (١٩) ، أحق (٢٠) منفلاً (٢١) جاهلاً (٢٢)
 سفياً (٢٣) يلج في المهادلة (٢٤) ويشتم في الزاح (٢٥) وينهي عن سوءه ويأنيه (٢٦) .
 وكما تمرض صورة المجتمع الاسلامي في شعر الفقهاء جوانب من القسوة
 والبيادان والقيم ، فإنها تمرض أيضاً مجموعة من الحوادث التاريخية والسياسية والفكرية
 مما كان يجري على مسرح ذلك المجتمع .

- ١ دوان أبي الأسود ١٣٢ و ١٥٣ ، و انظر شعراً لسابق البربري في حلية
 الأولياء ٣١٨/٥ . (٢) دوان أبي الأسود ١٨٢ .
 (٣) المصدر السابق ١٦٨ و ١٨٣ . (٤) المصدر السابق ١٦٦ و ٢٠٦ و ٢٢٤
 (٥) المصدر السابق ١٦٦ ، الخب : أي الخاضع .
 (٦) المصدر السابق ١٣٢ و ١٦٦ و ١٦٨ و ٢٢٤ .
 (٧) شعر النعمان ١٦٠ ، و دوان أبي الأسود ١٨٤ .
 (٨) انظر شعراً للدؤلي في نهاية الأرب ٣/٢٩٥ . (٩) شعر عروة ٢٩٧ .
 (١٠) شعر النعمان ١٤٩ ، و انظر شعراً لسابق البربري في حلية الأولياء ٣١٨/٥
 و شعر عروة ٣٤٥ . (١١) شعر النعمان ١٢١ . (١٢) دوان أبي الأسود ٢٣٢
 و شعر عروة ٢٩٦ . (١٣) شعر عروة ١٢٠ . (١٤) شعر النعمان ١٤١ .
 (١٥) دوان أبي الأسود ١٨٢ و ٢١٥ . (١٦) شعر عروة ١٢٢ .
 (١٧) دوان أبي الأسود ١٣٣ و ١٣٧ . (١٨) المصدر السابق ١٤٩ ، و شعر
 عروة ٣٣٣ . (١٩) شعر عروة ١١٦ . (٢٠) دوان أبي الأسود ١٣٣ و ١٣٧
 (٢١) المصدر السابق ١٩٩ . (٢٢) المصدر السابق ١٧٠ و انظر شعراً للمص
 ابن كدام في حسانة البحري ٢٥٣ . (٢٣) دوان أبي الأسود ٢٣٣ .
 (٢٤) و (٢٥) انظر آيات مسمر في حسانة البحري ٢٥٣ . (٢٦) دوان أبي
 الأسود ٢٣١ .

قالنهم بن بشير ينتصر لمبدرالرحمن بن حسان من مروان بن الحكم أن أقم عليه الحد من دون أخيه ، وكانا تهاجبا ، فرفع الأمر إلى معاوية ، وبذكره يوم السقيفة ، إذ كان بشير ، أبو النعمان ، أول أنصاري بايع الخليفة القرظي دون قومه ، وبذكره أيضاً بدر ، وما أبلى الأنصار فيها من بلاء حسن ، بينما كان يوم معاوية ، أو جلهم ، في صف الخصوم ، ثم يسأله أن يأمر ابن الحكم ليبري القصاص على طرفي النزاع :

واذكر غداة الساعدي الذي آزركم بالأمر فيها بشير
فأحذر عليهم مثل بدر وقد صر بكم يوم بدر عمير
لأن ابن حسان له نأثر فأعطه الحق تصح الصدور^(١)
ومحارب بن دثار يفتجع بمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين فينديه ويؤرخ
وقاته بقوله :

أنا من دمشق له نسي فلما أن أناخ بنا دعينا
وأمعنا المنادي من قريب سراعاً راغبين وراهبينا
نبكي الدين والدنيا جميعاً لحسن كُن من رجب بقينا^(٢)

وابن شبرمة يرتاع لانشقاق الصف العباسي الحاكم ، فيلوم عبادة بن علي عم المنصور ، أن قال على بي أبيه - على حد تسميه - وأورثهم الضنائ والأحقاد^(٣) ومعنى هذا أن شمر الفقهاء لم ينفلج التجمعات السياسية لمصر ، وبؤكد هذه الظاهرة فيه أنه لم يمرض لثورة عبادة بن علي في العصر العباسي فحسب ، وإنما أيضاً لجملة الفریق التي انبثت آنذاك في المجتمع الإسلامي . فهو ، منصف مطالعة السيدة عائشة وطلحة والزيبر علياً بدم عثمان ، رضوان الله عليهم ، بسجل هذا الغلاف^(٤) ، ثم تظهر على مسرح السياسة نظريات متقدمة في الحكم ، ويكون لكل

(١) شعر النعمان ١٤٤ . (٢) أخبار القضاة ٣/٣٢٢ .

(٣) انظر الايات في أخبار القضاة ٣/٩٤ ، وقد تقدمت عند الحديث عن الفجاء .

(٤) انظر ديوان أبي الأسود ٢٣٠ .

منها أنصار مؤيدون ، وزى شمر الفقهاء يلوح بطاقة صالحة منها .

ويُعدّ الشيعة من أقدم الفریق الثلاثة في الإسلام ، وقد تعرض الذين ناهضوا الأمويين منهم - بعد مقتل الإمام علي رضي الله عنه - إلى بعض الاعتداءات أو الهوان - وزى أبا الأسود الدؤلي يشكو من إهمال زياد بن أبيه له ، بعد أن آل امر العراق إليه فيقول :

رأيت زياداً صد عن وجهه ولم يك مردوداً عن الخير سائله
ينقذ حاجات الرجال وحاجتي كداء الجوى في جوفه لا زبيله
فلا أنا ناس ما نسيت فأيس ولا أنا راه ما رأيت فقاعله
وفي اليأس حزم لليب وراحة من الأمر لا ينسى ولا المرء نائله^(١)

وي موضع آخر من ديوانه يرثي الحسين بن علي ومن أصيب منه من بني هاشم في اللف فيقول :

أقول لصاذلي مرة وكانت على ودنا قائمة
إذا أنت لم تبصري ما أرى فيني وأنت لنا صارمة
أست ترين بي هاشم قد افتمهم الفنة الظالمة
فأنت ترتبهم بالهداء وبالطف هام بي فاطمة
فلو كنت راسخة في الكتاب وبالهرب خابرة طالمة
هللت بأنهم مشر لهم سبقت لنة حاتمة
سأجعل نفسي لهم جنة فلا تكثري لي من اللائمة

(١) المصدر السابق ٢١٩ ، والجوى : المرض المتناول ، وما نسيت وما رأيت : أي مدة لسياني وروثي ، بمعنى مدة بقائي جياً أمس وأرى .

أرجيتي بذلك حوض الرسول ل والفوز بالنعمة الدائمة
 لهلك إن هلكت برّة وتخلص إن خلصت فائمة^(١)
 على أن الشيعة حاولوا من جانبهم قلب نظام الحكم ليؤول شيعياً علوياً ،
 وعن سموا إلى هذه الغاية زيد بن علي ، وكان قد خرج بالكوفة سنة ١٢٢ هـ ...
 وقامه بشرك كثير فهم أهل العلم والسير ... وكتب زيد إلى أهل الموصل ، وبث
 إليهم رجلاً يدعوم إليه ، فقتله يوسف بن عمر في صفر في هذه السنة^(٢) ،
 وزيد هو الذي يقول :

خليتي عني بالمدينة بلخا بني هاشم أهل النهي والتجارب
 لكل قتيل معشر يطلبونه وليس لزيد بالعراق بطالب^(٣)
 وإلى جانب الشيعة كان في المجتمع الإسلامي خوارج كثير ، ويدعي أن
 يختلفوا مع الشيعة ، وفي ديوان أبي الأسود أبيات يستنكر فيها على نصر بن مالك
 خروجه مع الحرورية أو الموراء على حد تعبيرة ، يقول فيها :
 لمعرك ما نصر فلا تحسبته من المسلمين بالقوي ولا الجند
 خرجت مع الموراء تلمس الهدى وكان الهدى فيما تركت على عمد
 وقد كان في الفرقان لو كنت بانحياً

لنفسك منه ما يدل على الرشد^(٤)
 وكما اختلف الخوارج مع الشيعة اختلفوا أيضاً مع الأمويين ، ويمكن القول

(١) ابناه الرواة ٢٠/١ ، وصارمة : هاجرة ، والهداء : الهديان ، والطف : أرض قريبة
 من الكوفة وفيها كان مقتل الحسين . (٢) تاريخ الموصل ٤٤ .
 (٣) تاريخ الموصل ٤٤ . ونسب البيت إلى ابن زيد يحيى في روايته ، وهو الرابع ، انظر
 هامش فوات الوفيات (مكتبة النهضة المصرية ، بتحقيق محمد يحيى الدين عبدالحيد) ٣٣٦/١ .
 (٤) ديوانه ١٩٤ .

إن عهد أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بعد خير آونة للتهادن بين الفريقين ، وما
 احتفظت به المصادر من تلك الفترة المستقرة مناقشة لطيفة المادل لرجل من
 الشراة يدعى عمراً كان قد وجه إليه هذه الأبيات لما استخاف :

قل للموكل على الإسلام مؤتفياً وقد يرى أنه رث القوي واهي
 إنا شرينا بدين الله انفسنا نبي بذلك إليه أعظم الجاه
 ينهى الولاة بحد السيف عن سرف كفى بذلك لهم من زاجر ناهي
 وإن قصدت سبيل الحق يا عمراً آخك في الله أمثالي وأشباهي
 وإن لحقت بقوم كنت وأعظمهم في جور سيرتهم فالحكم لله^(١)
 فأجابه عمر بن عبد العزيز :

يا أيها الرجل المهدي نصيحتي إن المحاسن والتوفيق بالله
 إن كان أمر من السلطان تشكره فما عرى الدين والإسلام بالواهي
 هذا الكتاب كتاب الله قرؤه مصدق الوحي فينا أمر ناهي
 فقد نزل الذي يبني الهدى رهقاً عند الشريعة وهو العالم الهادي
 الملك يا عمرو ملك الله خالقنا والحكم يا عمرو مردود إلى الله^(٢)

وكان مع الشيعة والخوارج والأمويين جماعة ابن الزبير ، وسوف نرى كيف
 دعا النعمان بن بشير إليه وبإيمه ، وخاص معركة مرج راهط في صفوف أنصاره ،
 بما كان له أثر في مقتله بعدها ، ويدعي أن يكون لابن الزبير - شأن كل عظيم -
 خصوم مشاكسون ، ويمكن أن نمد من هؤلاء نصر بن عاصم الليثي الذي بصرح في
 شعره بخلافه له^(٣) .

(١) (٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي ٢٢٩ - ٢٣٠ .
 (٣) انظر سبم الأدباء ٢٢٤/١٩ .